مفردة السراب في الشعر العربي الحديث ودلالتها الفنية

إعداد

أ.د.م. محمد توفيق حرحش

الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية التربية – جامعة دمنهور

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور

العدد الثالث و الستون - يوليه -الجزء الأول - لسنة 2024

مفردة السراب في الشعر العربي الحديث ودلالتها الفنية

أ.د.م. محمد توفيق حرحش

مقدمـــة

مما لاشك فيه أن ظاهرة السراب قد ألهمت الشعراء في العصر الحديث فجادت بها قرائحهم حتى شكلت ظاهرة فنية في أشعارهم تستحق الدراسة والتأمل ؛والسراب كما جاء في لسان العرب يقصد به " الذي يجري على وجه الأرض كأنه الماء ، وهو يكون نصف النهار" [1] وقد وردت لفظة السراب في القرآن الكريم وذلك في قوله . تعالى . : (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) [2] ؛ وقد نزلت الآية في" شيبة بن ربيعة بن عبد شمس كان يترهب متلمسا للدين فلما خرج الرسول . صلي الله عليه وسلم . كفر "[3] وقيل أنها نزلت لتصف " أعمال الخير للكافر كصلة الرحم ونفع الجيران " [4].

و لقد استغل الشعراء ما في هذه الظاهرة الطبيعية من خصائص وسمات في رسم صورهم الفنية و صياغة معانيهم الأدبية . وبالرغم من حضورها المكثف والفعال في العصر الحديث مقارنة بوجودها في العصور الأدبية السابقة ؛ فلم تفرد دراسة لها في العصر الحديث مع وجود دراستين لها ؛ الأولي في العصر الجاهلي تحت عنوان : السراب في الشعر الجاهلي : دراسة في تشكيل الظاهرة و تأويلها شعريا للمؤلف : خليل سالم الرفوع . وأخرى في العصر الأموي تحت عنوان : السَّراب في شعر ذي الرُّمة لوحات فريدة في الشعر العربي ، دراسة جمالية ثقافية للمؤلف د. خالد زغريت .

وبالرغم من تردد مفردة السراب كثيرا في الشعر الحديث وتنوع دلالتها فلم ينتبه أحد من الباحثين إلي دراستها ، حتى إن القصائد التي جاءت تحت عنوان مفردة (السراب) لم تحظ بأهمية بالغة ولا أفردت لها دراسات مستقلة . ومن هنا وجدت لزاما على عاتقي أن أبرز دور هذه المفردة في الشعر العربي الحديث وأقف على معانيها ودلالاتها ؛ محاولا الإجابة عن عدد من التساؤلات أهمها :

- ما السياقات التي جاءت مفردة السراب فيها .
- ماذا أضافت مفردة السراب للقصيدة إذا جاءت عنوانا للنص الأدبي .

---

[1] ابن منظور - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري : لسان العرب دار صادر سنة النشر: 2003م ج 7 صـ 160

[2] سورة النور (39)

[3] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان تحقيق عبد الله ابن عبد المحسن التركي مؤسسة الرسالة بيروت ج 5 صـ 297

[4] المرجع السابق صـ 297

- ماذا أضافت مفردة السراب للقصيدة إذا جاءت في ثنايا النص الأدبي .
- كيف وظف الشعراء مفردة السراب في دعم معانيهم وصورهم .

ومن أجل أن يخرج البحث بصورة منهجية اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي في عرض وتقسيم المادة المجمعة ، وقسمت بحثي : مقدمة ومبحثين وخاتمة وثبت بالمصادر و المراجع على النحو الآتي :

أولا : المقدمة : تناولت فيها أهمية البحث ،و الدراسات السابقة للموضوع، والتساؤلات التي دفعتني لاختيار الموضوع، والمنهج المعتمد في كتابة البحث .

المبحث الأول : تناولت فيه أهم القصائد التي جاءت مفردة (السراب عنوانا لها) محاولا الكشف عن العلاقة بين العنوان و الموضوع ، وكيف ترك العنوان بصمة واضحة على معاني القصيدة وصورها .

المبحث الثاني : تناولت فيه أهم الأبيات الشعرية التي وردت في ثناياها مفردة السراب وكيف دعمت المفردة المعنى الشعري .

خاتمة تضمن أهم النتائج . والله ولي التوفيق

المبحث الأول

مفردة السراب عنوانا للقصيدة :

مما لا شك فيه أن العنوان يعد مدخل القصيدة ونافذتها على أجواء النص ؛ بل . إن شئت فقل . إنه ترجمان القصيدة ، ولسانها الناطق بمضمونها ؛ فالعنوان" للكتاب كالاسم للشيء ، به يعرف وبفضله يتداول ، يشار به إليه ، يحمل وسم كتابه " [5] وكم من عنوان علا بمتنه وطار به شهرة ؛ فالعنوان " علامة على النص وعلامة تهدي إليه ؛ فتعينه وتوثقه وتؤوله بشكل من الأشكال ، وهو يمثل مركزا لانطلاق القارئ نحو قراءة النص. "[6] وقد أفاض الباحثون في الحديث عن وظائف العنوان من " وظيفة تأسيسية إلى إغرائية ، إلى انفعالية، إلى اختزالية " [7] . والحقيقة أننا لسنا بصدد التأصيل النظري للعنوان بقدر ما نريد تتبع حضور مفردة السراب فى عناوين القصائد ، للكشف عن دلالتها ومعرفة طرق توظيفها في التجربة الشعرية ،وفضلا عن ذلك تحليل مدى ملائمة المفردة للحالة الشعورية للشاعر وتقييم موهبة الشاعر الفنية في توظيفها بالعمل الفني . ومن أهم القصائد التي جاءت تحت عنوان مفردة السراب ما يأتي :

1. ملحمة السراب للشاعر إبراهيم ناجي :

يعد إبراهيم ناجي من أكثر الشعراء فاعلية في توظيف مفردة السراب في عناوين بعض قصائده؛ فكتب مجموعته الشعرية : (ملحمة السراب) ؛ التي تضم ثلاث قصائد هي : السراب على الصحراء ، السراب على البحر ، السراب في السجن وفي موضع آخر كتب قصيدته (كذب السراب) . ولعل تأثر ناجي " بالمذهب الرومانسي وبما يمثله هذا المذهب من تشاؤم ويأس وصيغة سوداوية "[8] جعله يجد في هذه المفردة ضالته المنشودة ؛ فهي أصدق تعبيرا عن وجدانه؛ لذلك اتخذها عنوانا لأكثر من قصيدة في ديوانه ؛ ولم يكن العنوان بمنعزل عن مضمون القصيدة بل تكاد تلمح معنى العنوان في كل بيت شعري وفي كل صورة فنية يرسمها الشاعر ؛ ففي قصيدة السراب على الصحراء يقول :

السراب الخؤون والصحراء والحيارى المشردون الظماء

وليـــالٍ في إثرهـن ليـــــالٍ سنة أقفرَت وأخرى خـــــــلاء

---

[5] محمد فكري الجزار : العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب صـ15

[6] إيهاب النجـــــدي : العنوان وخطاب النص الشعري نماذج من شعر السعيد عبد الكريم مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد 82 العدد 4 أبريل 2022 صـ 13

[7] بسام موسى قطوس : سيمياء العنوان ، عمان ط1 2001صـ49

[8] أحمد حميد كريـــم : الحزن والتشاؤم في شعر إبراهيم ناجي ، مجلة كلية العلوم الإسلامية بغداد العدد 41 سنة 2015 ضـ545

قلّ زادي بها وشح المـــــــاء وتولى الرفاق والخلصـــــــــاء
كيف للنازح الحبيب ارتحالي وجناحاي السقم والبرحـــــــــاء
وجراحي المستنزفات الدوامي وخطاي المقيدات البطـــــــاء
أدركي زورقي فقد عبث اليـ ـم به والعواصف الهوجـــــــاء
والعباب العريض والأفق المو حش واللانهاية الخرســـــــاء
أفق لا يحد للعين قد ضـــــا ق فأمسى والسجن هذا الفضاء
سهرت ترقب الصباح وعين النـ ـجم كلّت وما بها إغفـــــــاء
عجبي من ترقبي ما الذي أر جو ولما يعد لقلبي رجـــــــاء[9]

لقد استهل الشاعر قصيدته بعبارة (السراب الخؤون) محاولا أن يجسد من خلالها ما يعانيه من فقدان وألم وحزن ، متمسكا بظاهرة طبيعية تتضمن معانى الاحتياج من جهة والخداع من جهة أخرى ، إن مفردة السراب تمثل معادلا موضوعيا لرؤيته للحياة ،وتجسيدا لذاته المتلطخة بالفقد و الحرمان ، إن الشاعر يجذب المتلقي بهذا الاستهلال ليشاركه أوجاعه؛ أليست تلك المفردة من " تلك العناوين التي يتخذها الأديب للمواضيع ذات الطابع العاطفي، التي تتصف بتحريك المشاعر، سواء أكان فرحا أم حزنا ، ولا سيما التي يصاحبها أثر اللذة أو الألم ." [10]

إن الشاعر يعكس نظرته السوداوية فى كل بيت شعري ويعكس آلامه ؛ ففي البيت الأول يصف السراب بوصف جديد مبتكر ، ويضفي عليه صفة من صفات الإنسانية وهي الخيانة فيقول (السراب الخؤون) ولا أظن أحدا سبق الشاعر في مثل هذا الوصف الذي يعكس تعرض الشاعر للانكسار و الظلم و الخديعة .

وبعد أن يتحدث الشاعر عن السراب الخؤون يأتي بمفردة هي الأقرب للسراب ؛ وهي مفردة الصحراء و هي مفردة تكاد تكون متلازمة لصورة السراب في الذهن الذي يربط السراب دوما بصورة الصحراء ، ومن هنا فحضور مفردة الصحراء كان حضورا قويا من جهتين : الأولى بوصفها تمثل الدلالة المكانية لظاهرة السراب ؛ فهي تحضر في الذهن بمجرد سماع مفردة السراب ، و الجهة الثانية بوصفها معادلا موضوعيا لذات الشاعر التي أقفرت من الأمل و الحياة بصفة عامة .

---

[9] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي ، دار العودة بيروت 1980 صـ 161
[10] دلشاد عبد الواحد محمود و د. عصام محمد سليمان : دلالة العنوان في نثر مصطفى صادق الرافعي (العناوين الدينيّة والوجدانيّة أنموذجا) مجلة جامعة دهوك، العراق المجلد: 26 ، العدد: 1 عام 2023 ،صـ261

ثم يذكر الشاعر في الشطر الثاني من البيت الأول ثلاث صفات ؛ (الحيارى والمشردين والظماء) وهي صفات تعكس ما بداخله من إحساس موحش، وتنبئ عن حالته الوجدانية التي يعيشها ؛ فالرجل الحائر " إذ لم يتجه لشيء . وفي حديث عمر ، رضي الله عنه : الرجال ثلاثة، فرجل حائر بائر أي : متحير في أمره لا يدري كيف يهتدي فيه . وهو حائر وحيران : تائه من قوم حيارى"[11] ،فالشاعر تائه في الأرض لا يدري أي وجهة يتجه إليها ، أما الصفة الثانية فهي التشرد و الرجل المشرد من قولنا " شرد البعير إذا نفر وذهب في الأرض "[12]،فالشاعر لا يشعر بالانتماء لجماعة ما فهو شارد عن الجميع متفرد بأوجاعه ، وأما الظماء فهم العطشي .وهي تعكس حالة الشاعر من الاحتياج لأمر متاح للجميع كالماء ولكن الشاعر لا يزال يفتقده . وهكذا شغل التَّمرد في شعر إبراهيم ناجي " حيزاً لا بأس به، دلَّ على نزعةٍ رومانسيةٍ تجلت في إلحاحه على الهرب من الواقع المرير إلى عالم الخيال تارةً، وإلى الطبيعة تارة أخرى، مُعلناً رفضه وتمرده على خيبته العاطفيَّة، وعلى تقاليد المجتمع وأفكاره، والحياة بما فيها من شقاء وظلم و عذاب، وبذلك يمكن القول: إنَّ التَّمرد في شعره غلبت عليه النزعة الهروبيَّة." [13]

وهكذا اشتمل البيت الأول في قصيدة الشاعر إبراهيم ناجي على مفردات من الطبيعة تتلاءم وطبيعة وجدانه ، وتتفق ونظرته للحياة ؛ وهنا لا بد أن نشير إلى دقة الشاعر في اختيار مفرداته وحسن تقسيمها ففي الشطر الأول عرض لثلاث مفردات (السراب . الخؤون . الصحراء) وفي الشطر الثاني عرض لثلاث مفردات (الحياري . المشردون . الظماء) ، والألفاظ على الترتيب تؤدى إلى صورة من صور التكامل اللغوي ،وتشكل صورة ذهنية منطقية؛ فالمفردة الأولى في الشطر الثاني(الحيارى) هي انعكاس طبيعي للمفردة الأولى من البيت الأول (السراب) ؛ فتعرض شخص ما لمثل هذه الظاهرة ، تدفعه دوما للحيرة في كل أمر يراه ؛ هل هو حقيقي أم مجرد سراب . و الكلمة الثانية من الشطر الثاني (المشردون) تكاد تكون نتيجة حتمية للمفردة الثانية من البيت الأول (الخؤون) فالشخص الذي يتعرض للخيانة . التي دوما تكون من المقربين . يندفع إلى التفرد والابتعاد عن الأقارب و يشعر بعدم بالانتماء ويفقد الثقة . أما المفردة الثالثة في الشطر الثاني (الظماء) فهي جاءت موازية لمعنى المفردة الثالثة في الشطر الأول (الصحراء) فتعرض الإنسان للظمأ في الصحراء أمر وارد . وهكذا جاءت المفردات

---

[11] ابن منظور - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري :لسان العرب دار صادر سنة النشر: 2003م ج4 صـ286

[12] المرجع السابق ج8 صـ52

[13] وصال حبَّال : التَّمرد في شعر إبراهيم ناجي مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية سوريا العدد 37 الصفحة 121.

بالبيت الأول لتكمل بعضها بعضا وفوق كل ذلك تعكس سيطرة عنوان النص (السراب على الصحراء) على معاني مفردات البيت الأول .

ولا تقف سيطرة عنوان القصيدة على مفردات البيت الأول فحسب ، بل تذهب إلى باقي أبيات القصيدة وتتغلغل بداخلها ؛ ففي البيت الثاني يقول الشاعر[14] :

وليالٍ في إثرهن ليالٍ سنة أقفرَت وأخرى خلاء

نجد أيضا المفردات التي تتولد من رحم مفردة السراب (أقفرت . خلاء) فالقفر و الخلاء يسيران على خط مواز للسراب فضلا عما يضفيه اللون الأسود المتولد من لون مفردة (الليالي) التي تكررت مرتين في الشطر الأول ، من دلالة التشاؤم و الحزن الذين يشعر بهما الشاعر . ثم يأتي البيت الثالث ليعكس مفردة السراب في أسمى معانيها إذ يقول [15]:

قلّ زادي بها وشح الماء وتولى الرفاق والخلصاء

يسير الشاعر على دربه المعهود من الحديث عن السراب والليالي و القفر و الخلاء والصحراء فيقول : لقد قل الزاد وشح الماء ،وهما صفتان متلازمتان للسراب و الصحراء ، ولكن الشاعر لا يلبث أن ينفجر بما في داخله فيكشف عن مكنونه ، ويعبر عن سبب آلامه ، (تولى الرفاق و الخلصاء) ؛ فالقصيدة " هي قصيدة الهزيمة في الحب، وهي هزيمة لا حدود لها؛ إذ تشمل كل عَلاقاته الاجتماعية من مودة وصداقة. وهو يستغل عناصر الطبيعة في هذه القصيدة لتصور أحزانه و متاعبه "[16]. نعم هزيمة تشمل ضياع الصداقة والإخلاص وفوق ذلك الحبيب كما يظهر في البيت الآتي [17]:

كيف للنازح الحبيب ارتحالي وجناحاي السقم والبرحاء

هنا تكتمل الصورة وتكتمل أضلاع المثلث الذي يعانى منه الشاعر متمثلا في ضياع (الرفاق . الخلصاء . الحبيب) . وهو بهذا التصور يعمق جراحه أمام المتلقي وهذه من أهم سمات إبراهيم ناجي بصفة خاصة و الرومانسيين بصفة عامة " ولم تكن ظاهرة التشاؤم، والهروب من الواقع المزري، والفرار إلى العزلة والانطوائية، والانطلاق إلى عالم الرؤى، والخيال، والأحلام، من الظواهر التي يتفرد بها إبراهيم ناجي، أحد الشعراء العرب الرومانسيين، وإنّما هي سمة عامّة وقاسم مشترك، كغيرها من الظواهر عند كثير من شعراء

---

[14] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 161
[15] المرجع السابق صـ 161
[16] شوقي ضيف : كتاب الأدب العربي المعاصر في مصر دار المعارف القاهرة ط 10 ، 1992 صـ159
[17] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 161

التيار الرومانسي العربي"[18]. ويستمر الشاعر في سرد أوجاعه ، ووصف حياته البائسة ؛ مستخدما من الأساليب ما يساعد على ذلك فيستخدم الاستفهام الذي يفيد الاستنكار في قوله[19] :

كيف للنازح الحبيب ارتحالي وجناحاي السقم والبرحاء

فالشاعر يستنكر قدرته على النهوض ليصل محبوبه وقد علق به السقم والبرحاء ، كما يوظف من الكلمات ما يتماشى وطبيعة العنوان (السراب على الصحراء) : (وخطاي المقيدات البطاء . العواصف الهوجاء . الأفق الموحش . اللانهاية الخرساء) ثم تنتهي المقطوعة السابقة عند بيت هي ملخص للسراب الإنساني الذي يعيش داخل الشاعر ؛ حيث يقول [20]:

عجبي من ترقبي ما الذي أر جو ولما يعد لقلبي رجاء

فالشاعر يتعجب من انتظاره تحقق أمنياته وقلبه محبط لدرجة قطعت عنه كل رجاء ، وهذا ملخص العنوان المستمد من الطبيعة (السراب) و الذي حاول الشاعر أن يعكسه على واقعه الإنساني، فالسراب يجعل الظمآن يتخيل اللا شيء ماء ، وكذلك حال الشاعر الذي يعلم أن أمنياته ليست موجودة في أرض الواقع . وهكذا يستمر الشاعر في معظم أبيات قصيدته في جلب المعاني التي توافق عنوان النص ؛ فمن ذلك قوله[21] :

والحطام الفاني عليه اقتتال والأماني بريقها إغراء

فالشاعر لا يزال يردد من المعاني التي تتلاءم وطبيعة عنوان القصيدة (السراب والصحراء)؛ فالأماني وهي رجاء الشاعر لها بريق يغريه بمواصلة السعي ومحاولة الوصول ولكن يصطدم بالواقع مثل السراب الذي يغري صاحبه فإذا وصل عنده لم يجد شيئا . وهنا يصل الشاعر إلى مرحلة من النضج جعلته يدرك حقيقة الأمور ، فيقدم للمتلقين هذا البيت الشعري الذي يعرف بالبيت المقلد حيث يمكن فصله عن باقي القصيدة كما أنه صالح للاستشهاد به في أكثر مواقف الحياة حتى يكاد يجري مجري المثل .

---

[18] حامد الرواشدة : صورة المرأة في شعر إبراهيم ناجي : قراءة في قصيدة " الأطلال " أنموذجًا ، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 34 ، ملحق 2، 2016 صـ1070

[19] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 161

[20] المرجع السابق صـ 162

[21] المرجع السابق صـ 162

وفي قصيدته الثانية (السراب على البحر) لا يزال الشاعر يغترف من طلاقته اللغوية ويستوحي . بمهارته الفنية . من الكلمات و الصور الفنية التي تتفق وعنوان القصيدة ؛ يقول الشاعر في مطلع القصيدة [22] :

السراب على البحر

لا القوم راحوا بأخبارٍ ولا جـــاءوا ولا لقلبك عن ليلاك أنبـــــاءُ

جفا الربيعُ لياليا وغادرهـــــــــا وأقفر الروضُ لا ظل ولا ماءُ

يا شافي الداء قد أودى بي الداءُ أما لذا الظمأ القتَّـــال إرواءُ

تبدأ الأبيات بالنفي ثم يتكرر النفي أكثر من مرة في نفس البيت ؛ ومما لا شك فيه أن النفي " يحدد أسلوب الشاعر في قول ما يريد، على أساس انعدام التشابه الإرادي والتماثل المقصود بين عالمه والعوالم الأخرى، لأنه عندما يتلاعب بالنفي يبغي الإثبات بطريق المخالفة "[23]؛ فالشاعر يقرر حالة القلق و التوتر وفقدان الأمل وغير ذلك من تلك الصورة السوداوية التي يريد تقديمها للمتلقي . فالنفي " يعكس حالة القلق الوجودي الذى يتردد في وجدان الشاعر المعاصر، فهو ينفي أحياناً ليدافع عن نفسه، وينفي أحياناً ليسخر من واقعه، وينفي في أحيان أخرى ليعبر عن الثورة والتمرد، كما ينفي كل مظاهر القبح والعناء رغبة منه في خلق عالم أفضل، ولا شك أن أسلوب النفي يوحى بحيوية التجربة، وقدرتها على التوازي مع تفاعلات الواقع" [24] . ويكرر الشاعر النفي في البيت الثاني (لا ظل ولا ماءُ) ليؤكد على حالة القلق التي يعيشها . وفي البيت الثالث يستعطف الشاعر الله . تعالي . شاكيا وجعه الذي وصل إلى حد الهلاك ، داعيا الله عز وجل بأن ينال رجاءه . ومما لا شك فيه أن هذا النفي المتكرر الذي يعبر عن حالة القلق التى يعيشها الشاعر كما يعبر عن ثورته وتمرده هو صورة مكملة لعنوان القصيدة (السراب على البحر) فالشاعر لا يصل لجديد في حياته ، ولا أنباء قاطعة عن محبوبه، ويعيش حياة قفرا لا ظل فيه ولا ماء ثم يتحدث عن هذا الظمأ القتال .. وهكذا تدور مفردات الأبيات الثلاثة الأولى في دعم العنوان العام للنص .

---

[22] المرجع السابق صـ 164

[23] صلاح فضل : نبرات الخطاب الشعري / الطبعة الأولى / دار قباء للطباعة والنشر / القاهرة / 1998 م / ص/ 193

[24] جمال فودة : بنية النفي ودورها في إنتاج الدلالة.. قراءة في الشعر العربي المعاصر ، مقال اغسطس 2020 https://alketaba.com/%D8%A8%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%81%D9%8A-%D9%88%D8%AF%D9%88%D8%B1%D9%87%D8%A7-%D9%81%D9%8A-%D8%A5%D9%86%D8%AA%D8%A7%D8%AC-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%84%D8%A7%D9%84%D8%A9-%D9%82%D8%B1%D8%A7/

ويواصل الشاعر في سرد المفردات و الصور الفنية التي تدعم عنوان النص من جهة وحالته الوجدانية من جهة أخرى ؛ يقول [25]:

عندي سماء شتاءٍ غير ممطرةٍ سوداء في جنبات النفسِ جرداءُ

خرساء آونة هوجاء آونـــــــة وليس تخدع ظني وهي خرساءُ

فالشاعر يأتي بصورة جديدة وهي قوله " سماء شتاءٍ غير ممطرةٍ " فالجملة تعكس للمتلقي صورة بصرية لأجواء الشتاء التي يعيشها الشاعر في داخله ؛ من لون حالك وعواصف ورعد وغير ذلك من مظاهر الشتاء دونما قطرة ماء واحدة ، وذلك لأن الماء يدل على الخير والبركة وهذا ما يفتقده الشاعر لذلك كان الشاعر حريصا وذكيا في جلب الصورة المناسبة لحالته الشعورية من جهة ولعنوان القصيدة من جهة أخري فالسراب يقضي بعدم تواجد الماء وإن وجد ما يخدع الشخص بتواجده ولذلك قام الشاعر باستثناء ما يفسد المعنى المراد. ويواصل الحديث عن نفسه فيصفها بالجرداء. ويقرر أنه لا ينخدع بتلك اللحظات التي تسكن فيها العواصف بداخله ؛ لأنه يعلم أنها مجرد خدعة وأنها ستواصل عصفها مرة ثانية . وهذا أيضا معنى مواز لعنوان النص فالخديعة إحدى صور السراب .

ويستمر الشاعر في وصف السراب الذي يعيشه مع محبوبته ؛ يقول[26] :

أأنتِ ناديتِ أم صوتٌ يخيل لـي؟ فلي إليكِ بإذن الوهم إصغـــاءُ

لبيك لو عند روحي ما تطير به وكيف ينهضُ بالمجروحِ إعياءُ

فالشاعر يتساءل هل نادى المحبوب عليه أم مجرد تخيل ؟ ثم يتحول من السؤال إلى الإجابة على هذا التساؤل قائلا : إنه حتى لو كان وهما فما دام من الحبيب فلابد أن يتعامل الشاعر معه معاملة الحقيقة ووجوب الإصغاء لهذا النداء وتلبيته . وهكذا تتكرر معانى الوهم والشك فى علاقة الشاعر بمحبوبته ، كالوهم الذي يصاب به الشخص لحظة إدراك السراب . ولذلك نلمَح في البيت الثاني هذا التحول من التقرير إلى الاعتراض ثم إلى الاستنكار ؛ فبعد أن يقرر إجابة نداء محبوبه قائلا (لبيك) يعترض على هذه الإجابة قائلا (لو عند روحي ما تطير به) ثم يستنكر أن يقوى على ذلك قائلا (وكيف ينهضُ بالمجروحِ إعياءُ) ؛ ومما لا شك فيه أن مثل هذا التحول اللغوي يمثل موهبة أبدع الشاعر في نسجها في معظم قصائده عن السراب .

---

[25] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 164

[26] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 165

ولا زال الشاعر في ثنايا قصيدته يأتي بصور ومعان متفرقة عن السراب ؛ حتى تعود صورته لتظهر بقوة في نهاية القصيدة ؛ حيث يقول :

يا من تنفس حر الوجد في عنقي كما تنفس في الأقداح صهباءُ
ومن تنفستُ حر الوجد في فمـــه فما ارتويت، وهذا الري إظماءُ
ما أنت عن خاطري بالبعد مبتعـد ولن تواريك عن عينيَّ ظلمـــاءُ

فالشاعر يتحدث عن هذا الماضي بينه وبين محبوبته ؛ حيث كان الوصال و الوجد في أشد صورهما ، وبالرغم من هذا القرب لم يشعر بالارتواء ، بل وجد في القرب الظمأ والاحتياج ، ثم يقرر أن المحبوب وإن بعد في المكان فلم يبعد عن خاطره وإن أظلمت الدنيا فهو يراه . وهكذا نجد معاني الفقد و الحرمان و الظمأ عند الشاعر حتى في قرب محبوبته منه وليس في البعد فقط .

أما القصيدة الثالثة التي كتبها الشاعر إبراهيم ناجي فكانت (السراب و السجن) و بالرغم من تباعد مفردتي العنوان عن بعضهما في المعنى ، فقد استطاع الشاعر من خلال أبيات القصيدة التقريب بينهما وجعلهما مترابطين ويعد هذا العمل صورة من صور الإبداع اللغوي الذي يتمتع به الشاعر ؛ يقول الشاعر[27] :

السراب في السجن

يا سجين الحياة أين الفـــرارُ أوصد الليلُ بابه والنهـــــــارُ
فلمنْ لفتةٌ وفيم ارتقـــــــابٌ ليس بعد الذي انتظرت انتظـارُ
والتعلات من هوى وشبـــــاب قصة مسدلٌ عليها الستـــــارُ
ما الذي يبتغي العليلُ المسجَّى قد تولى العوادُ والسمـــــــارُ
طال ليلُ الغريب وامتنع الغمـــ ض وفي المضجع الغضا والنارُ

وحول هذه الأبيات يعلق أحد الباحثين قائلا " و القارئ لشعر ناجي يفهم شدّة اغترابه دون أيّ عناءٍ لبحثٍ أو تنقيب و ليس لفهم هذا الاكتئاب حاجةٌ إلىٰ أي فطنةٍ و ذكاء فهو يعتبر في شعره، الحياةَ سجناً ليس منه فرار. تضيق الدنيا به و يوصد الليلُ و النهار أبوابَهُما في وجهه. و تولّي العوّادِ و السمّار هو رمزٌ علىٰ شدّة اليأس عنده. كما يتساءلُ بصراحة ما انتفاع الفتىٰ بالعيش الموحِشِ و قد تولّتْ قافلتُهُ و في ركبها اللظىٰ و الدمار؟ "[28] و الباحث هنا يؤكد على فكرة التشاؤم التي حاول ناجي إظهارها في الأبيات السابقة وفي

[27] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 166
[28] خيرية عجرش : إبراهيم ناجي وتأثره بغزل الشريف الرضي : العراق مجلة أهل البيت ع 14صـ 167

معظم شعره غير أن ما أحاول التركيز عليه هو تلك العلاقة بين العنوان وبين معاني الأبيات تلك العلاقة التي تتولد من اختيار مفردات تكون صورا فيها معنى الفقد و الضياع فالحياة سجن لا مهرب منه ، كما أن الخروج من الصحراء أمر صعب ، الحياة في السجن قاسية مثل قسوة الصحراء ؛ ينتظر الشاعر أن يعود زمان وصل محبوبته كما يتمنى السجين ومن ضاع في الصحراء أن يعود لذويه ؛لقد تولت الأماني ولم يعد بمقدرة الشاعر أن يحلم بالوصل كالسجين الذي يفقد الأمل في الخروج من سجنه وتتجه كل أحلامه نحو السراب .

ألا يرى السجين كل أحلامه سرابا أمام عينيه ، ألا يشعر بأنه مقيد لا يستطيع تنفيذ أي حلم من أحلامه ؛ كذلك حال الشاعر الذي حتى لو ملك مفاتيح السجن فلن يجد مكانا يهرب إليه ؛ يقول الشاعر [29]:

وهَب السجنُ بابه صار حرًّا لكَ لا حائل ولا أســـــــــوارُ
وعفا القيدُ عنك كفًّا و ساقًا فإذا الأرض كلهـــــا لك دارُ
أين أين الرحيل والتسيار؟ بعدت شقة وشط مـــــــــــزار
والخطى المثقلاتُ باليأس أغلا لٌ لساقيك والمشيبُ عثــارُ
ما انتفاع الفتى إذا عفت الجنْـ نَة واجتاح دوحَها الإعصارُ

يكرر الشاعر الاستفهام (أين أين) وهو يريد بهذا الاستفهام إظهار العجز و الضعف فلا يوجد مكان يهرب إليه وقد أثقله اليأس و أضعفه الشيب .ثم يبدأ الشاعر في تقديم لوحة فنية تصور تساقط أحلامه وانهيار حبه كجبل شامخ ينهار ويتهدم أمام عينيه ؛ يقول الشاعر [30] :

عشتُ حتى أرى خمائلَ حبي تتهاوي كشامخ ينهـــــــارُ
تحت عيني ويذبل الحسنُ فيها ويموتُ الربيعُ والأنـــــوارُ
ما انتفاع الفتى بموحش عيشٍ بقيَتْ كأسُه وطاح العقــارُ
وبقاء البساط بعد الندامى كأس سم بها يدور البـــــــوارُ
ما انتفاعي وتلك قافلة العيـ ش وفي ركبها اللظى والدمارُ

وأكثر شيء يلفت الانتباه في هذه المقطوعة و المقطوعة التي قبلها تكراره قوله (ما انتفاعي) ولعل هذا التكرار بما يتضمنه من موسيقي يؤكد فكرة الشاعر من خسارته وفقده

[29] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 166
[30] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 167

لكل شيء ، إن الشاعر بهذا التكرار يؤكد ديمومة الحزن والتشاؤم واستغراقه فيهما دون أي منفعة في التفكير للخروج منهما . ولعله يذكرنا بقول المتنبي [31]:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

والشاعر إن كان قد استعار مطلع البيت (وما انتفاع) من المتنبي ؛ فإن باقي بيت المتنبي يكاد ينطبق على شاعرنا فقد استوت لديه كل الأمور إن كان سجنا أو خارج السجن إن كان وصلا أو فراقا .. وهكذا تسيطر على شاعرنا فكرة الموت و انقضاء الأمل من هذه الحياة واعتبار كل ما مضي من حب كالسراب ، فالشاعر سجين سراب مضي لا أمل في عودته مطلقا.

ولقد وفق الشاعر بالأبيات السابقة في الجمع بين الصور المتقابلة ؛ مثل صورة الحب في رونقه وقد شبهه بالأشجار الكثيفة في قوته ونضارته وامتداد جذوره إلى أعماق التربة ؛ فهو حب متأصل في النفوس كجذع الشجرة في الأرض ، وبين صورة جبل شامخ يتهدم . وكذلك صورة ذلك الحب المتمثل في روضة من الأشجار وبين نفس الروضة وهي تذبل وتموت نضارتها كأنما غادر الربيع . رمز الخصوبة و النماء . تلك الحياة .

أما القصيدة الرابعة (كذب السراب) فقد كان فيها من الوضوح و المباشرة ما يكشف عن حيثيات ذات الشاعر دون الاحتياج لكثير من الشرح أو التعمق في فهم الصور أو البحث كثيرا عن دلالة المفردات ؛ ويبدو أن الشاعر قد كتبها وقد تعبت روحه ، وزادت معاناته ، وتعمقت جروحه ، وشقيت روحه ، فلم يعد له سعة صدر أو طول بال ليأتي بالصور العميقة أو يقرب الصور المتباعدة أو حتى يبحث عن المعاني العميقة ؛ يقول الشاعر في قصيدة كذب السراب [32]:

البحر أسألُهُ ويسألني ما فيه من ريٍّ لظامئـــــهِ

متمرِّدٌ عاتٍ يضللني كذِبُ السَّرابِ على شواطئِهِ

فالشاعر يضع عنوانا مباشرا لقصيدته (كذب السراب) وهو بهذا يضفي صفة من صفات البشر (الكذب) على هذه الظاهرة الطبيعية ، ثم يستخدم الاستعارة أيضا في البيت الأول من خلال هذا الحوار الذي أجراه مع البحر و الذي عبر عنه بالتساؤلات التي تعكس الحيرة و القلق في ذات الشاعر وأن ثم شيء مفقود يبحث الشاعر عنه ، مما دفعه لمحاورة هذا البحر الذي لا يجد عنده جوابا ولا علاجا لروحه (ما فيه ريٌّ لظامئه) ، ثم يصف البحر

---

[31] ديوان أبي طيب المتنبي : شرح أبي البقاء العكبري ، دار المعرفة جـ 3صـ 367

[32] إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي مرجع سابق صـ 277

بالمتمرد و التضليل ويقرنه بالسراب الذي يجده على شاطئه . وهكذا يسقط الشاعر أوجاعه على البحر ويضفى على البحر هذه الصفات التي عرف الرومانسيون بها . ولا يمكن إنكار دور الاستعارة في هذين البيتين فقد زخر البيتان ببضع استعارات ؛ حيث شبه البحر بالإنسان المتمرد وكذلك الانسان الظالم ، وكذلك بالإنسان المضلل ، وغير ذلك من الاستعارات التي يخلع من خلالها ما في ذاته من ألم جراء هذه الصفات التي يضفيها على البحر . ثم يتحدث الشاعر عن هذا السراب الذي يتدفق في أوهامه ويسري في منامه ويقظته ؛ يقول الشاعر[33] :

كم جال في وهمي فأرَّقني أربٌ وأين الفوزُ بـــالأربِ؟
وسرى بأحلامي فعلَّقها فوق السُّهى بلوامعِ الشهـبِ
في يقظةٍ مني وفي وسنٍ صَرْحٌ بذِروَتِهِنَّ متَّحـــــدُ
الفجرُ والسحرُ المخضَّبُ من لَبناتِهِ والقمةُ الأبـــــدُ

ومما لا شك فيه أن الشاعر يقصد بهذا الأرب ما يبتغيه من حب قديم مفقود صار كالسراب الذي يجري في أحلامه وفي يقظته دون الوصول لغايته (وأين الفوز بالأرب ؟) فالسؤال هنا للاستبعاد ؛ فالشاعر يستبعد الفوز بمبتغاه ، كما يستخدم الشاعر الطباق بين (يقظة . وسن) ليبين سيطرة التشاؤم على الشاعر في كل أحواله ؛ فالمتشائم قد يلوذ بالنوم فرارا من الواقع أما الشاعر فاليقظة و النوم سيان ، ثم يبدأ الشاعر في الصراخ و البكاء و العويل على ما ضاع من حب ؛ يقول الشاعر[34] :

واهًا لضافي الظلِّ وارفِهِ قضَّيتُ عمري في توهُّمهِ
لما طلعتُ على مشارِفِهِ أيقنتُ أني فوق سُلَّمِـــهِ

الشاعر يصرخ من الألم جراء انقضاء عمره في توهم الحب وبعد فوات الأوان اكتشف الشاعر أنه لا يزال على السلم دون الوصول لمبتغاه وأي سراب أشد قسوة من هذا الأمر حيث ينقضي العمر دون الوصول للمراد . وفي نهاية القصيدة يطالعنا الشاعر بمجموعة من التساؤلات تكشف عن فكر الشاعر ووجدانه معا ؛ يقول الشاعر[35] :

قَدَرٌ على قدرٍ تلاقِينا كلُّ الذي أدري وتدرينـــا
أنَّا أطعناهُ مُلَبِّينا من أنت؟ من أنا؟ من يُنَبِّينا؟

---

[33] المرجع السابق صـ 277
[34] المرجع السابق صـ 277
[35] المرجع السابق صـ 278

هنا يتجاوز الشاعر عتاب النفس إلى النظر في القدر الذي جمعهما ، فما كان من الشاعر ومحبوبه إلا طاعة هذا القدر و تلبيته و الرضا به ، ثم يعود الشاعر مرة أخري إلى الذات ليتساءل عن نفسه وكينونته وعن محبوبه (من أنت؟ من أنا؟) ، ومما لاشك فيه أن سؤال الذات هذا من خصائص شعر الرومانسيين بصفة عامة وشعر ناجي بصفة خاصة ، ومما لا شك فيه أن هذه الذاتية ليست متعلقة بالشاعر فحسب بقدر ما يرى القارئ " فيها ذاته و يتجاوب معها وكأنه صاحب التجربة لم يفكر في نفسه أو يكشف عن ذاته فحسب بل يعبر أيضا عن تجربة الآخر و ينقلها بأمانة و دقة و ثم فإن التجربة ذاتية في مصدرها و لكنها ذات نزعة إنسانية عامة"[36] . وهذا من جوانب إبداع شعر ناجي فالشاعر يغلق قصيدته على سؤال ذاتي أقرب إلى الفلسفة منه إلى الشعر ليفتح باب الجدل في ذات المتلقي ، وهي نهاية مفتوحة للقصيدة لا تنغلق بنهاية آخرها ولكن هذه النهاية تفتح مجالا رحبا للتفكير و النظر في محاولة للإجابة عن التساؤل.

وهنا تجدر الإشارة إلى ملاحظة قد تبدو غريبة بعض الشيء وهى العلاقة بين عنوان القصيدة وخاتمتها ؛ فعنوان القصيدة (كذب السراب) وخاتمة القصيدة (من أنت؟ من أنا؟ من يُنَبِّينا؟) وكأن جهل الشاعر بذاته وذات الآخرين هو كذب السراب الذي يقصده الشاعر ، إن الذات عند الشاعر كالسراب كلما حاول التمعن فيها والاقتراب منها ؛ ابتعدت ونأت عنه ، فلا هو فض مغاليقها ولا هو أدرك كنهها .

2. قصيدتا (مدينة السراب / السراب) للشاعر بدر شاكر السياب :

كتب السياب قصيدتي (مدينة السراب . و السراب) وهما يعبران عن وجدان محطم ؛ ففي قصيدة مدينة السراب يعكس الشاعر صدمته من الواقع الذي يعيشه؛ وهو لا يبحث عن عالم مواز يحقق فيه ما فشل في تحقيقه بالعالم الحقيقي بل يري أن كل أمنياته مجرد مدينة رسمها في خياله كأنها سراب لا وجود لها ، إنها مختلفة بلا شك عن المدينة الأفلاطونية وغيرها مما دعا الفلاسفة إليه ؛ لأنها ببساطة شديدة مدينة عصف الواقع بها، وحطمت وجدانه ، يقول الشاعر [37]:

مدينة السراب

وأنت يا ضجيعتي كأنك الكواكب البعيدة

كأنّ بيننا من الكرى جدار

---

[36] محمد الصادق عفيفي : النقد التطبيقي و الموازنات، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة،1972، ص 5

[37] بدر شاكر السياب : الأعمال الشعرية الكاملة تحقيق على محمود خضير تقديم أدونيس - المجلد الأول ط1 لبنان 2020 صـ 529

تضمّك اليدان تعصران جثة بليدة

كأنني معانق دمي على حجار

في منزل لصوصه الرياح والهجير والغيوم

مساؤه السكون والنجوم

وصيحة انتظار

ترامت السنون بيننا: دما ونار

أمدّها جسور

فتستحيل سورا

يستخدم السياب هنا أسلوب المخاطب في شعره (وأنت يا ضجيعتي)؛ حيث عبر من خلاله على حالته الشعورية ، ومما لا شك فيه أن لأسلوب المخاطب في الشعر تأثير كبير على المتلقي؛ فهو يدفع المتلقي لتصور الأحداث ماثلة أمام عينيه ، إن الشاعر من خلال هذا الأسلوب قد حمل معانيه كثيرا من الأبعاد النفسية فقد كان السياب " مرهفا في إحساسه يشعر دائما بالحرمان ، وينطوي على نفسه التي لا تستجيب لظروف البيئة من حوله ، ومن خلال ذلك تظهر رغبته في المرأة فقد وجد أن الحب مصدر الحياة فأصبحت الحبيبة عنده وطنا ، والوطن حبيبة ، ويرى أن فراق محبوبته يعد موتا بالنسبة له وكأنه لا يقوى على تحمل أعباء هذا الفراق المرير"[38]

ومما لا شك فيه أن الأبيات السابقة تعكس عددا من الصور القاتمة ؛ فهي تزخر بصور شتى لمعاناة النفس البشرية ؛ تصور حرمان الشاعر وأوجاعه ؛ فالبيت الأول يتحدث فيه الشاعر عن محبوبته وكيف أنها قريبة من وجدانه كما لو كانت مرافقة له في كل لحظة ، ولكن في الواقع هي بعيدة عنه بعد الكواكب ؛ فالشاعر يشبه بعدهما عن بعض ببعد الكواكب عن الإنسان ،كما يشبه الكري بحائط يفصل بينه وبين محبوبه وذلك في قوله (كأنّ بيننا من الكرى جدار) ، ويأتي بصورة تتضمن معاني الألم و الوحدة قائلا (كأنني معانق دمي على حجار) ولا يمكن ان ننكر طرافة التشبيه وجديته فلا أذكر أن أحدا سبقه لمثل هذا التشبيه ؛ حيث يصور عناقه لأحلام الوصال مع محبوبته كأنه يعانق جدارا ملطخ بدمائه .

[38] د شرين خضر : ثنائية الحب و الموت بين ايديث سيتويل وبدر شاكر السياب ؛ مجلة بحوث كلية الآداب جامعة الطائف صـ867

كما تزخر هذه المقطوعة الشعرية بالمفردات التي تعبر عن معاناة الشاعر الوجدانية ، وقسوة الأيام التي يعيشها الشاعر (الكري . جثة بليدة . دمي . الرياح . الهجير . الغيوم . دما ـ نار) ، ومما لا شك فيه أن دقة السياب في اختيار المفردات قد ساعدت على إضفاء معاني الحسرة التي كانت مسيطرة على السياب آنذاك .ففي وجدان الشاعر " خزين هائل من الحزن، حزنه متعدد الوجوه، وكل وجه منه يمثل عالماً له ملامحه وحدوده، حزنه عوالم بينها وشائج وملامح شبه.. عوالم تستمد نسخ وجودها من معاناته ولوعته واشجانه." [39].

كما تعكس هذه الأبيات المعاناة التي شعر بها السياب ، وكذلك الغربة التي كانت وليدة عوامل متعددة " وللمعاناة امتداد واسع في نصوص السياب، لأنها تومئ إلى الأحاسيس الملتاعة والتجارب الروحية الوقادة والفيوض العاطفية المتأججة، ويمكن لها أن تستوعب مسيرة حياة كاملة لشاعر مرهف الأحاسيس مثل بدر شاكر السياب. أما الغربة فإن لها وجودا جلياً في حياة السياب وفي إبداعه الشعري، سواء منها حالتاها اللتان عرفت بهما في دنيا الأدب، إذ رأتها إما غربة روحية و إما اغتراب مكاني، ولكليهما في شعر السياب وجود وأثر ." [40]ويستكمل الشاعر قصيدته صارخا باسم محبوبته ، متوجعا من بعدها ؛ يقول الشاعر [41]:

وأنت في القرار من بحارك العميقة
أغوص لا أمسّها تصكّني الصخور
تقطّع العروق في يدي أستغيث آه يا وفيقة
يا أقرب الورى إليّ أنت يا رفيقة
للدود والظلام
عشر سنين سرتها إليك يا ضجيعة تنام
معي وراء سورها تنام في سرير ذاتها
وما انتهى السّفار

لو وقفنا عند قوله (أنت في القرار من بحارك العميقة) نجد الشاعر قد استخدم الجملة الاسمية التي تفيد التقرير و التأكيد على هذا البعد بينه وبين محبوبته ، وكلمة القرار وما فيها من معنى يوحي بالاستقرار وكأن كل شيء قد استقر وسكن حينما انفصل الشاعر

---

[39] كيلاس محمد عزيز : التجربة الوجدانية في شعر السياب المعاناة والغربة أنموذجا مجلة الجامعة العراقية ج 2 ع 56صـ 304

[40] المرجع السابق صـ 306

[41] بدر شاكر السياب : الأعمال الشعرية الكاملة مرجع سابق صـ530

عن محبوبته ، وهنا يمكن أن نستحضر هذه المقابلة التي أجراها الشاعر- بصورة غير مباشرة . ما بين (البحر و القرار) ؛ فمفردة (البحر) توحي بالأمواج و العواصف وهذا يعكس الأجواء التي أحاطت بالشاعر جراء سعيه للتقرب من محبوبته ، ومفردة(القرار) تعكس حالة الهدوء التي سادت حول الشاعر حينما انتهي الأمر بينه وبين محبوبته بالابتعاد .

و الحقيقة أن وفيقة (محبوبة الشاعر) تتجاوز كونها امرأة يعشقها الشاعر لتكون دلالة على ظروفه التي تتشابه معها وليعبر من خلالها عن توجعه لفقد والدته " ذلك أن الحديث عن وفيقة إنما كان أيضاً حديثا عن أمه بطريقة إيحائية، فوفيقة تجمع في طبيعة حياتها وموتها بين بدر وأمه، فهي فتاة من عائلته (وفيقة بنت صالح بن محمد بن السياب) ماتت أمها وتركتها يتيمة، كما حدث لبدر، ثم توفيت في حال وضع وتركت طفلا يتيما. فهي في شخصها تمثل مشكلة بدر وهي في موتها تمثل الأم، وكان هذا التلاقي في المصيبة هو الذي يعطف بدرا إليها، ولهذا نحس أن حديثه عنها وإن حمل ألفاظ الحب، لا يعني إلا " إسقاطا " نفسيا أو نقلا، ولهذا يقول لها " يا اقرب الورى إلي " [1] رغم بعدها العميق عنه" [42].

مازالت محبوبة الشاعر سرابا لا يستطيع الوصول إليه ، وما زال الشاعر يغترف من المفردات التي تصور المعاناة أشد تصوير ؛ فمن ذلك قوله : (لا ألمسها . تصكني الصخور . الدود والظلام) وغير ذلك من المفردات التي لا تنضب ،ومما لا شك فيه أن لفظتي (الدود والظلام) فيهما إيحاء بالفناء و الموت . ثم تظهر قمة اليأس في قوله [43]:

إليك يا مدينة السراب يا ردى حياتها

عبرت أوربا إلى آسيه

وما انطوى النهار

وأنت يا ضجيعتي، مدينة نائية

مسدود أبوابها وخلفها وقفت في انتظار

يتضح من النص السابق أن وفيقة (محبوبة الشاعر) ليست مقصودة بعينها بقدر كونها " تشكل حالة من حالات العودة إلى الجذور و هموم الذات "[44] ؛ إنها إسقاط على

---

[42] إحسان عباس: بدر شاكر السياب دراسه في حياته وشعره ،مكتبة بغداد بيروت ط2 1972 صـ 393

[43] بدر شاكر السياب : الأعمال الشعرية الكاملة مرجع سابق صـ530

[44] عابد إيمان ، بن موسى فاطيمة الزهرة : صورة المرأة في شعر بدر شاكر السياب رسالة ماجستير إشراف الأستاذة: بن ضياف كريمة الزهرة جامعة الدكتور الطاهر ملاوي سعيدة الجزائر صـ27

فقده أمه وعلى صباه وطفولته قبل أن يصيبه المرض ؛ لذلك يتحدث عنها بكونها مدينة سراب ؛ مدينة تشمل أكثر من أمر قد فقده الشاعر ؛ أمه ، صحته ، و حبيبته ...ولذلك لا سبيل لأى شيء من هذه الأمور فهي محض سراب.

وفي قصيدة (سراب) ظهر الاستسلام في أشد صوره ، وسيطر اليأس على روح الشاعر وعقله معا ؛ فظهرت ملامحه وقسماته في أجواء النص الأدبي ؛ يقول الشاعر [45]:

بقايا من القافلة

تنير لها نجمة آفله

طريق الفناء

وتؤنسها بالغناء

شفاه ظماء

تهاويل مرسومة في السراب

تمزّق عنها النقاب

على نظرة ذاهلة

وشوق يذيب الحدود

ظلال على صفحة باردة

تحركها قبضة ماردة

وتدفعها غنوة باكية

إلى الهاوية .

كتب السياب هذه القصيدة بعد أن تأكد أن علاقته بمحبوبته قد انتهت " وكان التباين في الدين من أقوى العوامل التي تجعل ذلك الحب ينحدر نحو يأس، ولهذا يضطرب هذا الشريط؟ على قصره – بشتى المواجد والانفعالات، فهو إذا استسلم للواقع أدرك أن حظه مما يعانيه سراب"[46]. ولذلك دخل السياب في الموضوع مباشرة لم يبدأ قصيدته بتمهيد لحالته الشعورية وإنما دخل في أزمته مباشرة ،ولاشك أن الاستهلال المركز "يتطلب من الشاعر أن يعتصر خلاصة فكره وأن يجود في صياغته ليقدم عبر استهلاله هذا الجو العام الممهد للقصيدة " [47].

---

[45] بدر شاكر السياب : الأعمال الشعرية الكاملة مرجع سابق صـ174

[46] احسان عباس : بدر شاكر السياب حياته وشعره مرجع سابق صـ116

[47] إنعام جاسب عبود : بنية الاستهلال في شعر الشاعر بدر شاكر الدياب (د راسة فنية) مجلة كلية الإمام كاظم م7 ع 4ديسمبر 2023 صـ188

وتعكس مفردات النص الأدبي روح الاستسلام واليأس في معانيه ؛ فنجد مفردات (بقايا قافلة . نجمة آفلة . طريق الفناء . شفاه ظماء . السراب . تمزق . نظرة ذاهلة . شوق . يذيب الحدود . غنوة باكية . الهاوية) وفوق كل هذا فإن هذه المفردات تساير عنوان القصيدة (سراب) وتماشي معه .ومما لا شك فيه أن مثل هذه المعاني هي انعكاس طبعي لما يعانيه الشاعر من وجع وألم نفسي " إن الشاعر يكابد وجعا نفسيا ،و حالة من التأزم لهموم الذات المحملة بقيود الغربة، هذه الغربة وحدها كافية لأن تجسد كل معاني الظلم والمعاناة والقهر النفسي الذي أفقده الأنس وأشعره بالوحدة والحرمان، فكيف لو تجمعت معها عناصر أخرى؟ لقد عانى السياب من غربة نفسية شكلتها له ظروفه الخاصة والتي ليس له يد فيها: نحافة جسمه، عدم وسامته ، فقره، حرمانه العاطفي ، فحولته إلى نفس انهزامية مهشمة تتلاعب بها الرياح ،وهو ما أسلمه إلى غربة مكانية أشعرته بغرابة ما يحيط به من ماديات "[48]. ويواصل السياب اختيار المفردات التي تدعم رؤيته للحياة وتطابق وجدانه الذي يعاني من الأوجاع ؛ ليقول[49] :

ظلال على سلم من لهيب
رمى في الفراغ الرهيب
مراتبه البالية
وأرخى على الهاوية
قناع الوجود
سنمضي .. ويبقى السراب
وظل الشفاه الظماء
يهوم خلف النقاب
وتمشي الظلال البطاء
على وقع أقدامك العارية
إلى ظلمة الهاوية
وننسى على قمة السلم
هوانا .. فلا تحلمي
بأنا نعود!

---

[48] سوسن رجب حسن : المكان وتشكيلاته في شعر السياب دراسة نقدية تطبيقية ، مجلة كلية الآداب بورسعيد ع 7 2017صـ125

[49] بدر شاكر السياب : الأعمال الشعرية الكاملة مرجع سابق صـ175

هنا تظهر ثانية مفردة السراب في قوله (سنمضي ويبقي السراب) ليؤكد دلالة العنوان على مضمون النص ؛ وتعود للظهور ثانية المفردات التي تساير مفردة السراب من جهة ، ووجدان الشاعر من جهة أخري مثل (لهيب . الفراغ الرهيب . الهاوية . الشفاه الظماء . النقاب . العارية). وهنا يجب أن نقف أمام قوله (قناع الوجود ... سنمضي .. ويبقى السراب) الشاعر يرى أن الوجود يرتدي قناعا وهو يتضمن الإشارة إلى خداع الحياة ، وتعلق الشاعر بالموت قائلا (سنمضي) ولكنه يؤكد أن الخداع مستمر و السراب لا ينتهي . هذه هي وجهة نظر الشاعر أو ما ينطوي عليه وجدانه من خدعة الحياة مستخدما الاستعارة في قوله (قناع الوجود) وهو تعبير مجازي جديد ومبتكر وصورة تعكس إحساس الشاعر وقد كشف خدعة الحياة . ليقرر أنه لا أمل للوصال ؛ فقد انقضي الأمر وانقطعت كل سبل الرجاء في الحياة .

3. السراب ورحلة البحث عن الذات عند الشاعر صالح الشرنوبي:

كتب الشاعر صالح الشرنوبي أكثر من قصيدة تحت عنوان السراب ؛ مثل (السراب ؛ والسراب الخالد) و الشاعر من خلال هذه القصائد يبحث فيها عن ذاته ، محاولا فض مغاليقها، و البحث في دواخلها ، وسبر أغوارها بغية الوصول لمصالحة ذاتية مع الحياة . إن الشاعر في شعره يضج بالشكوى والأنين من الحياة ، كما يتكشف شعره عن هذا الصراع بين الحياة من جهة و الذات من جهة أخرى، ولا سيما أن " الذات الشاعرة عند الشرنوبي ذات متنوعة، شديدة الحساسية و التجاوب و المشاركة الوجدانية ،وهو ما ألقي بظلاله على مكونات الخطاب الشعري لديه "[50] . ووظيفتنا هنا أن نزيل اللثام عن مفردة السراب بصفتها وليدة ذاته الشاعرة ومعرفة طرق توظيفها في شعره كي يعبر عن هذا الصراع .

فالشاعر يستهل قصيدته (سراب) بفحوى الصراع الأبدي بين الإنسان و الدهر ؛ يقول الشاعر : [51]

بين أمواجكَ يا دهـ ـر مضى بي زورقي
تائه الغاياتِ مَغلـو لاً يُرَى كالمُطلـــق
وأنا فيه كما شـــا ءَت رياحُ الخالــقِ

---

[50] على محمد السيد حنورة : تجليات الذات الشاعرة في شعر صالح الشرنوبي دراسة وصفية تحليلية ، مجلة كلية اللغة العربية إيتاي البارود الإصدار الثالث ، العدد السادس و الثلاثون ، أغسطس 2023 صـ 814

[51] صالح الشرنوبي : الديوان ؛ جمعه وحققه د / عبد الحي دياب ، راجعه د/أحمد كمال ذكي ، دار الكاتب العربي القاهرة صـ178

وهوَ لو يرحم شكوا يَ قضى بالغرقِ

ما زال الدهر يلقي بظلاله على الشعر العربي منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ؛ فدراسة الشعر الجاهلي تقود إلى " الكشف عن حقائق الدهر التي أهمت الشاعر الجاهلي ، فوقف أمامها مطيلا في التأمل " [52] ، حتى يصل الدهر في شعر أبي علاء المعري إلى هذا العمق الفلسفي الغريب وهكذا فالشعر منذ العصر الجاهلي يقف أمام الدهر وقفات متباينة ؛ وقفة عتاب أوشكوى أو ألم ... ولكن يتفق الجميع حول أمر واحد وهو الجهل بكنه هذا الدهر ومعرفته المعرفة الحقيقية ، وبالرغم من مرور الأزمنة ؛ يأتي شاعرنا ليقف موقف الشكوى من الدهر.

يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث عن الأمواج ؛ التي تعكس اضطراب النفس وتخبطها ، وتكشف عن الشدائد المتتابعة التي تعصف بها ، إن حياة الشاعر مثل أمواج البحر لا تستكين ولا تهدأ ، تحيط بها العواصف من كل اتجاه . ويأتي الشاعر بكلمة (أمواج) بصيغة الجمع ليعكس كثرة الشدائد والأزمات التي تحل علي الشاعر ، ثم يأتي بمفردة (زورق) الذي يمثل طوق النجاة عند الشاعر ؛ و الذي يوحي بضعفه أمام أمواج الدهر وأنه لن يقدر مواصلة الصمود أمام هذه الشدائد . وفوق كل هذا فالشاعر تائه الغايات لا يعرف غايته في الحياة لدرجة أنه يشعر أنه مقيد أمام تصاريف الدهر وإن كان الجميع يرى أنه غير مقيد ؛ فالقيد هنا قيد نفسي لا قيد مادي . ثم يظهر الشاعر التسليم بما قضاه الله . تعالى . ، و الرضا بقدره وإن كانت أمنية الشاعر تتمثل في نيل الموت .

ومما لا شك فيه أن المفردات و الصور التي جاء بها الشاعر في الأبيات السابقة تعكس جزءا كبيرا من دلالات مفردة السراب ؛ وخاصة البيت الثاني[53] :

تائه الغاياتِ مَغلو لاً يُرَى كالمُطلق

فالشاعر يقر بأنه في وسط أمواج عاتية وليس لديه ما يساعده للخروج من هذه الأمواج سوى زورق ضعيف و لا يعرف غاية يمضي لها ؛ بل يسير مثلما أراد الله له ويصف نفسه بأنه (تائه) ولا شك أنها قرينة من قرائن السراب ودلالة من دلالاته فالشاعر " اتخذ من وجوده خصما له ، حتى تحولت هذه الخصومة إلى صراع نفسي محتدم ، ومعركة داخلية حامية الوطيس ، بين ذاته المبدعة المحاصرة في ماهيتها البشرية

[52] رباح عبدالله علي : مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي رسالة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها ، إشراف اد عدنان أحمد جامعة تشرين صـ179

[53] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 178

الضعيفة ، وبين قوة قاهرة تفرض سلطانها على هذه الذات ؛ التي أصبحت بمرور الوقت ذاتا انهزامية واهية[54] " هذه الذات الانهزامية تنعكس في قوله [55]:

وأنا فيه كما شا ءَت رياحُ الخالقِ

فالشاعر يستخدم الجملة الاسمية لتقرير رضاه عن تصاريف القدر وتصل الانهزامية ذروتها بقوله [56]:

وهوَ لو يرحم شكوا يَ قضى بالغرقِ

فالشاعر يدعو الله . عز وجل . بأن ينهي حياته جراء هذه المصائب والخيبات المتتالية التي تعرض لها .فإذا نظرنا " إلى شعر صالح الشرنوبي نجده شعرا مملوءا بنغمات حزينة وملتاعة، ونظرة إلى الوجود من خلال منظار قاتم ، وتذوقا للحياة كان مغلفا بالضيق والكآبة و الشكوى والشعور المرير و القلق والاكتئاب و التوجس الشديد ، وتمنى الموت و الخلاص من الحياة"[57] ثم تظهر دلائل السراب وهيمنته على الشاعر في المقطع الثاني من القصيدة ؛ وذلك في قوله [58]:

أيّ شطآنكَ يا دهـــــــر سأرسو في حماهْ
صِفهُ لي من قبل أن أبـــلُغَ يا دهر مـــــداهْ
أهوَ حقٌّ مثلما حـــــدَّثَنى عنه الـــــرواهْ؟
أم خداعٌ نسجتـــــــه لضحايا ها الحيـــاهْ!

مما لا شك فيه أن الأبيات السابقة تعكس مظاهر السراب التي هيمنت على ذات الشاعر ؛ الذي لا يعرف مرفأ يرسو عليه ، ولا يعرف حتى أوصافه ، ولذلك تسيطر معالم الحيرة على الشاعر فيبدأ الشاعر المقطوعة الشعرية بهذا التساؤل : أيّ شطآنكَ يا دهر ؟ الذي يعكس الحيرة و التردد ، ثم يكرر التساؤل مرة أخري في قوله : أهوَ حقٌّ مثلما حدّثَنى عنه الرواهْ؟ ، ومما لا شك فيه أن مثل هذا التكرار يؤكد على الشك الذي يختلج صدر الشاعر ، ثم يتطور هذا الشك إلى الوصول لمرحلة الإحساس بالخداع من قبل الحياة ؛ حيث يقول الشاعر [59] :

أم خداعٌ نسجته لضحايا ها الحياهْ!

---

[54] على محمد السيد حنورة : تجليات الذات الشاعرة في شعر صالح الشرنوبي دراسة وصفية تحليلية مرجع سابق صـ 833
[55] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 178
[56] المرجع السابق صـ 178
[57] خالد البلاح : سيكولوجية الإبداع الشعري ؛ صالح الشرنوبي نموذجا بدون طبعة بدون تاريخ صـ 9
[58] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 178
[59] المرجع السابق صـ 178

هنا يأتي الشاعر بحقيقة شعوره متمثلا في (الشعور بالخداع) ويرى من ذاته ضحية من ضحايا الحياة ؛ وهذه سمة من أهم سمات السراب ؛ وصفة من صميم صفاته ؛ فكثيرا ما تجد السراب مرتهن بالخديعة حتى كأنهما وجهان لعملة واحدة . ولعل هذا الشعور سمة عامة في شعر الشرنوبي بصفة عامة وخاصة عندما " يكون غاضبا مما نزل به من محن تراه يرفض الحياة ويحس فيها بالغربة و الوحشة وكأنها أصبحت سرابا تائها في صحرائها فلم يجن غير الأذي "[60]. وعلى ذكر مفردة الخداع يأتي الشاعر بمفردة السراب في الأبيات التالية ؛ إذ يقول[61]:

حدّثوني عن شبابي وأمانيه الرطـــاب
إذ رأوني طائر الأحـ ـلام وثّابَ الرغاب
ليتهم يدرون ما حلّ بنفسي من عذاب
ليريحوا أذن الظمـآ ن من ذكر السراب

هنا يشعر الشرنوبي بفوات العمر وتولي الشباب دون تحقيق أي هدف في حياته ؛ إن الشاعر مثقل بالإخفاقات المتتابعة ؛ متخم بالخيبات المتتالية ، مكلوم من الأوجاع المتلاحقة ؛ ولعل هذا يذكرنا بالشاعر إبراهيم ناجي ومذهبه الرومانسي ، لكننا عرفنا الأسباب التي دفعت ناجي لمثل هذا الشعر ؛ فقد كانت واضحة أو – إن شئت فقل . كان منطلق الشاعر واضحا ، أما الشرنوبي فتشعر معه بشيء غير قليل من الضبابية ،وتشعر معه بأن دوافعه لهذا الاتجاه معدومة ولعل هذا ما دفع أحد الباحثين النفسيين بالقول : " و الواقع أننا لا ننكر تجربته المتكررة في مستشفي الأمراض العقلية . والتي دخلها مرغما . وما طبعت في داخله ولو بالإيحاء أنه يعاني من مرض نفسي ما ، على الأقل في نظر المحيطين به . ولا يخفى أنه كان يعاني عدم توافق مع الذات ، ومع من حوله "[62]، ونحن نستبعد فكرة المرض العقلي ؛ إن الشاعر يأتي بتناسق رهيب للمفردات و المعاني ؛ فتجده يتحدث عن شبابه وأمانيه الرطاب فضلا إن الشاعر يحمل أحلاما قد قوضها الزمن وانفلت العمر منه دون أن تتحقق هذه هي القضية ولقد كان أكثر إيجازا بقوله : ليريحوا أذن الظمآن من ذكر السراب . نعم الشاعر متعب من تلك الأيام التى تولت دونما تحقيق رغائبه وأحلامه التي صارت سرابا .

---

[60] يوسف محمد عزاز يوسف : المفارقة في شعر صالح الشرنوبي ؛ مجلة كلية اللغة العربية إيتاي البارود المجلد الخامس العدد الثاني و الثلاثون صـ4293

[61] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 178

[62] خالد البلاح : سيكولوجية الإبداع الشعري ؛ صالح الشرنوبي نموذجا مرجع سابق صـ20

وبعد أن بكي الشاعر شبابه يعود إلى الوراء أكثر فيبكي طفولته ؛ إذ يقول [63]:

بين أفراح المواليـــــــد أتيت العالمـــا
لست أدرى أمريـــــــدا جئته أم مرغما
أو أنا أدرى كما يـــــــد ري ذبيح ألمـــا
إنها النار فلا تلقـــــوا عليها ضرمـــا
حدثوني أين طفل الفكـــ ر طفل الخاطـر
أين هذا الطفل ملء القلـ ب ملء الناظر
فدعوني أندُب العمـــــ ر بذوب العمـــر

يتحدث الشاعر عن فرحة الجميع بالمواليد وأنه جاء إلى العالم كما جاء جميع الأطفال ؛ ولكنه يتساءل هل كان مجيئه للعالم رغبة منه أم رغما عنه ؟! و الحقيقة أن هذا التساؤل يؤكد نظرة الشاعر التشاؤمية للحياة ، فالسؤال يتضمن إقرارا بالجواب؛ بأنه جاء العالم بدون رغبة منه ولعله هنا يتلاقي بعض الشيء مع نظرة أبي العلاء المعري الذي ذهب به فكره إلى الدعوة بعدم الإنجاب ،ولهذا يرى أحد الباحثين أن: "فجناية الوالدين عند الشرنوبي والأب خاصة عند المعري تتمثل في سببية مجيئه للحياة ، وهي صورة تعبر عن حالة التشاؤم والانفصام عن المجتمع وعدم الرضا عن الواقع "[64] ولسنا بصدد المقارنة بين المعري و الشرنوبي ، بقدر الوقوف على فكر الشرنوبي في كتابته الشعرية ؛ ولنقف هنا علي تلك الصورتين المتقابلتين في الأبيات السابقة ؛ لقد رسم الشرنوبي صورة مبدعة تتضمن أنواع التفاؤل من فرحة الناس بالمواليد ثم هذا الطفل الذي يدخل العالم بأفكاره الوردية وخواطره العذبة و الذي يملأ القلب و النظر سعادة وبهجة . وفي المقابل يرسم صورة مأساوية لهذا الطفل الذي يدخل العالم بصورة قسرية ، ثم يموت أحلامه الوردية وتنقضي آماله أمام عينيه وينتهي به العمر دونما أي شيء ، ولا أعلم كيف استطاع الشرنوبي رسم تلك الصور المتقابلة في بضعة أبيات لم يفصل لكل صورة مجموعة من الأبيات ، ولكن الصورتين اشتقتا من صورة واحدة وكما أن حزن الطفل وشقاؤه مشتق من فرحته وسعادته كذلك فإن الصورة التشاؤمية للطفل تم تجزئتها من حديثه عن سعادة الطفل وفرحته .وتنتهي الأبيات بموجز لتلك الفكرة التشاؤمية ؛ حيث يندب فيها الشاعر ذوب العمر وانقضائه دونما هدف .

---

[63] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 179
[64] شعبان ذكي : الإبداع الشعري عند صالح الشرنوبي بين تنوع التقليد وعبقرية التجديد ، المجلة العلمية كلية اللغة العربية بأسيوط ، ع31 ج 3 سنة 2012 صـ1399

ولا زال هذا الموجز الذي انتهي إليه الشاعر في المقطوعة السابقة يتردد صداه في باقي القصيدة ، ويطوف في أجوائها ، ويرتسم على معالمها ؛ إذ يقول الشاعر [65]:

أيها الناس لقد نفضـــ ت من عمري يـــدي
وهفت روحي إلـى رؤ ية ما يطوى غـــدى
آه لو أسطيع أن أعر ف كنهَ الأبـــــد
آه لو أدرى مصير الر وح بعد الجســـــد
آه لو أعلم ما بعـــ ـد فناء الموجـــد
أهو بعث رهنت ســا عته بالموعـــــد
أم هو الوهم يريـــ ـني القرب كالمستبعد
آه لو أني ما عمرت أو لم أولـــــــد

هنا ينادي الشرنوبي الناس جميعا ويثير فيهم همم التفكير ، ويحثهم على الانشغال بقضيته ؛ فقضيته التي يفكر فيها ما هي إلا جزء من قضية كبري يتشارك الناس فيها جميعا ؛ فالشاعر يخلق " الجو الإيحائي معبرا عن التجربة الشعرية بلغة شعرية تجعل المتلقي يعيش المعادلة الشعرية نفسها التي كابدها الشاعر في أثناء عملية الإبداع الفني " [66] . ثم يستخدم الشاعر الاستعارة المكنية في قوله (لقد نفضـ ت من عمري يدي) ؛ حيث يشبه العمر بشيء مادي ينفض الشاعر منه يده مما يعكس انعدام الأمل وانعدام الرغبة في البقاء ، ثم يكرر توجعه في باقي أبيات القصيدة أربع مرات وكل هذا التوجع مقترن بمعرفة الغد ومصير الروح بعد خروجها من الجسد ، وأخير يتحسر على بقاءه حيا بل يمتد تحسره وتوجعه على مولده من الأساس .وعلى هذا يتقارب عنوان القصيدة (السراب) مع مفردات القصيدة ومعانيها وأفكارها.

أما قصيدته الثانية (السراب الخالد) فيفتتحها الشاعر بأكثر من مفارقة ؛ يقول الشاعر :[67]

في طريق يحفّه الزهرُ النضـــــ ـر وفي جوفه تفُحُّ الأفاعي
سرت كالطائر الرضيع يُبـــــاري أمّهُ في تحدّر وارتفـــــاع
سرت ظمآن جائع النفس والقلب سجين الرؤى ضريرَ الشعاع

---

[65] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 180
[66] منيف موسي : نظرية الشعر عند الشعراء النقاد العرب في الأدب العربي الحديث من خليل مطران إلى بدر شاكر السياب ، دار الفكر اللبناني بيروت1984صـ 245
[67] صالح الشرنوبي : الديوان ؛ مرجع سابق صـ412 ، 413

ملهماً أستبيح مالا يبيح النـا	س في عالم قليل المتـــاع
وحوالي من بني الطيش أشبا	هـ قطيع مشرّد في يفـــاع
دمهم ماؤهم وراعيهم الذئـــ	ـب وأعراضهم سفوح الراعي
كلّهم ذابحٌ ذبيح فيما أشـــ	ـبه قلب المريع بالمرتـــاع
كفروا بالجمال والحبّ والحقّ	وجنّوا بالشرّ والأطمـــاع
دمويّون يستخفّهم الســـو	ط إذا جرّدته كفّ الصـــراع
فإذا رنَّ مزهرٌ أو شدا شـــا	دِ أعاروهُ ميّتَ الأسمـــاع
ألهذا القطيع أنفقُ أيّـــا	مي وتفنيني الليالي الحزينه
ألتلك الأصنام أسحق عمري	وأغنّي ألحانيَ المجنونـــه

المفارقة الأولى تتمثل في عنوان القصيدة (السراب الخالد) ؛ فلفظة الخالد أقرب في وصف الأمور الحسنة ، كالحب الخالد أو الإخلاص الخالد أو المعروف الخالد ،وهي وإن كانت توصف في القرآن لأهل الجنة و النار على سواء فإنما من قبيل السخرية من أهل النار ، أما أن يوصف السراب بكونه خالدا فهذا أمر فيه مفارقة " فالسراب رمز للظمأ النفسي الذي يعاني منه الشاعر فكيف يكون خالدا ؟ وما آية خلوده ؟ وهو أماني ضائعة يجد الشاعر في طلبها ويعود بخفي حنين لا يجني غير البوار و الخذلان ، و الحكم على السراب بالخلود يعني أن الشاعر يعيش حياة كلها سراب وبوار فإذا أحس أنه حقق شيئا تكشفت له الحقيقة لتقول له إن الذي وصل إليه سراب " [68] . ولعل هذا ما تكشفت عنه القصيدة السابقة (السراب) وهذا يعكس أن التشاؤم قد انطبع على وجدان الشاعر فانعكس في أكثر شعره إن لم يكن جميعه .

أما المفارقة الثانية فتتمثل في تلك المقابلة بين حالتين ؛ حالة ظاهرة غير حقيقية وحالة خفية حقيقية فالحالة الظاهرة تتمثل في طريق جميل يحفه الزهر النضر من كل اتجاه أما الحالة الحقيقية فتتمثل فيما يحتويه هذا الزهر في داخله من أفاع ولا شك أن هذا الأسلوب قد سار عليه في القصيدة السابقة أيضا ويبدو أن هذه الصور المتقابلة قد صارت وسما على أسلوب الشرنوبي في شعره ، ولا مجال لإخفاء الحقيقة أو محاولة الكشف عن وجدان الشاعر فقد صار أمره مكشوفا أو . إن شئت فقل . إن الشاعر فيه من الصراحة في عرض فكرته على المتلقي دونما غموض ، ولم الغموض ؟ و الشاعر يحاول إشراك المتلقي في الأمر ، ودفعه لمعايشة التجربة الشعرية ، وكأنه يقول للمتلقي : انتبه فلست وحدى ، أنت

[68] يوسف محمد عزاز المفارقة في شعر صالح الشرنوبي ،مرجع سابق صـ 4333

أيضا مشترك في هذه القضية فأعد البصر مرة أخرى في حقيقة الدنيا التي تتزين بورود زاهرة وفي باطنها الأفاعي ، أحيانا تشعر بأنك طائر سعيد تحلق في الفضاء ومرة أخري تشعر بالظمأ النفسي و السجن وقصر الرؤيا ، ثم يعود للحديث عن نفسه قائلا : إنه استباح من متاع الدنيا القليل مالم يستبحه غيره من الناس وبالرغم من هذا التصرف فإنه يلوم الناس على أفعالهم الوحشية وحبهم للدماء مشردين بلا راعٍ تارة وتارة يكون الذئب راعيهم ، ويستمر في سرد أوصاف عدوانية للبشر منكرا عليهم ذلك بالرغم من قوله واصفا نفسه[69] :

ملهمًا أستبيح مالا يبيح النا س في عالم قليل المتاع

ولا أدري ما مقصده أنه استباح مالم يستبحه الناس ؛ الذين يصفهم بالذئاب وحب الدم والتشرد وحب القتل بصفة خاصة و الشرور بصفة عامة ، لا أدري أي استباحة صنعها فوق أفعال هؤلاء البشر التي ذكرها وهل يعاتب الناس ويتمرد عليهم وصنيعه أشد وأفظع من أفعالهم ؟! على كل فإني أرى أن الوصف القادم للناس من حوله أفظع من كل الأوصاف السابقة إذ يقول[70]:

فإذا رنَّ مزهرٌ أو شدا شا دٍ أعاروهُ ميّتَ الأسماع

فتشرد الناس وحبهم للشرور و الدماء لم يكن كافيا في نظر الشاعر ، حتى جردهم من كل حس إنساني ؛ فقد ماتت قلوبهم وأسماعهم عند سماع أو رؤية أي شيء جميل ، وأي قسوة تسيطر على الشخص إذا انتفي عنه الحس الجمالي ، لقد ختم الشاعر على الناس ووصفهم بأنهم حجارة لا تشعر ولا تطرب لأي جمال ، فماذا بقي لديهم من الخير ؟ لا شيء سوى الشرور والآثام ، ولا يمكن أن نتجاوز جمال هذه الصورة المركبة التي رسمها في قوله (أعاروهُ ميّتَ الأسماع) فالشاعر يجعل من الأسماع شيئا ماديا يعار وحذف هذا الشيء المادي وأتى بشيء من لوازمه وهي الإعارة ؛ كما أضفي على الأسماع صفة من صفات الكائنات الحية وهي الموت ؛ وهي صورة تخدم القصيدة ككل من جهة ومن جهة أخرى تعكس وجدان الشاعر المأساوي . ولا أذكر أن قد سبقه أحد إلى مثل هذه الصورة فكل ما يحضر في ذهني قول الشاعر (ميت الأحياء) ، أما تلك الصورة التي رسمها الشرنوبي ففي وجهة نظري أنها إبداع فني خالص مستمدة من موهبته الفنية . وهنا يتساءل الشاعر[71] :

---

[69] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 412
[70] المرجع السابق صـ 413
[71] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ 413

ألهذا القطيع أنفقُ أيّـــــا مي وتفنيني الليالي الحزينه
ألتلك الأصنام أسحق عمري وأغنّي ألحانيَ المجنونـــه

فالشاعر يتساءل مستنكرا كيف ينفق عمره على هذا القطيع البشري الملوث بالشرور وحب الدماء ، رافضا أن تفنيه الليالي وسط هذا القطيع المشرد الذي يعيش كالذئاب ، ثم يعيد التساؤل مرة أخري واصفا الناس هاهنا بالأصنام مستكثرا عليهم أشعاره وألحانه التي يصفها هي الأخرى بالجنون . ولعل سؤالا ساذجا يراودني . ولتصفح عني أيها القارئ الكريم . مادام الشاعر رافضا الناس من حوله ، متمردا عليهم ، واصفا إياهم بالذئاب ، ولاصقا بهم الشرور وحب الدماء ، مستكثرا عليهم أشعاره وألحانه ؛ فلم يكتب أشعاره ؟! ولم ينادي عليهم في قصيدته السابقة قائلا [72]:

أيها الناس لقد نفضـ ت من عمري يدي

وقبل هذا البيت يتمنى أن يشعر الناس بما يعتصره من ألم ؛ إذ يقول [73]:

ليتهم يدرون ما حلّ بنفسي من عذاب

الحقيقة أن ثمة بعض التضارب في شعر الشرنوبي ،فتارة يشرك نفسه في الأوصاف الشريرة التي ساقها في وصف البشر ، وتارة يتعالى بنفسه على البشر ويستثني نفسه منهم . تارة يرفض الناس ويتمرد عليهم ، وتارة يستجدي اهتمامهم وينادي عليهم . ولعلك لا تنزعج مني إذا قلت إن الشرنوبي قد خانته المعاني والأفكار ، وقدم أوصافا معممة على البشر بصورة سوداوية ولا يصح في وجهة نظري المتواضعة وصف محيطه بهذه الأوصاف وأن يكيل الاتهامات للبشر جزافا ، ولكن فلتكن هذه هي صورة وجدان الشاعر وقد انعكست بأقتم صورها على شعره ، وما أنا إلا باحث يسلط الضوء على معانى الشاعر وصوره . وما يلبث الشاعر أن يعرض لمجموعة من التساؤلات ؛ إذ يقول[74] :

منْ سقاني كأس الحياة ومـــــن صوَّر نفسِي منَ المَعاني الحَنونه
منْ رماني إلى التراب ومن قـــدّر للشمس أن تعيشَ سجينـــــهْ
منْ بني الشامخ الممرد في نفسي وأعلى آفاقه وركونـــــــهْ
ثم أغرى به رياح المقاديـــــــ ـر فسوّت سهوله وحزونـــــهْ
ومشى فيه عنكبوت المنايـــــا مستبيحاً أيّامه وسنينـــــهْ
همجيّ اليدين يهدمُ أحْـــــلا مِي ليبنى أحْلامه الملعونـــَهْ

---

[72] المرجع السابق صـ 180
[73] المرجع السابق صـ 178
[74] المرجع السابق صـ413 ، 414

في الأبيات السابقة يبدأ الشاعر في المراوحة بين استعادة المنطق بعض الشيء وفقده في آن واحد ؛ فيبدأ في تناول بعض القضايا بصورة منطقية ، ثم لا يلبث أن يأتي بالصور المتناقضة ؛ فيتساءل عن الذي وهبه الحياة ، مستخدما في هذا التساؤل صورة فنية جميلة بقوله (من سقاني كأس الحياة) وأداة الاستفهام (من) هنا تفيد التعظيم ، فضلا عن تشبيه الحياة بشراب يسقي في كأس وحذف الشراب وأتي بشيء من لوازمه وهو مفردتا (الشرب و الكأس) ، ثم يكرر الشاعر الاستفهام بأداة الاستفهام السابقة (من) ولكنه هذه المرة يقرر بأن الذي خلقه قد سواه من المعاني الحنونة ولكنه سرعان ما يعود إلى وتيرته السابقة فيتساءل شاكيا : من قدر له أن يواريه التراب ويجعل الشمس سجينة ؟ . ثم يعود بصورة جديدة ونقيضها في آن واحد ؛ فيعظم من خلق في نفسه صرحا ممردا ووهبه رفعة وسموا ، وفي نفس الوقت يعجب الشاعر كيف سُمِح للموت بأن ينال من هذه النفس التي سمت وعلت و خلقت في أحسن تصوير . ويستطرد وصف الموت فيشبهه بعنكبوت همجي اليدين ؛ يستبيح عمره ، ويهدم أحلامه .ولعلنا هنا قد ندرك بعض الشيء علاقة العنوان (السراب الخالد) بأجواء القصيدة ؛ فالشاعر وصل لمرحلة من التيه و التخبط و اللا إدراك و في نفس الوقت إذا وصل لأمر طيب يعود فينقضه ويهدمه ويجده لا شيء ، لقد غاص الشاعر في أعماق النفس و الروح وأدرك الجماليات القابعة فيهما وكلما وقف على واحدة منها وجد نقيضها وأنها ذاهبة ومصيرها الهلاك ، فيعود ثانية لنظرته المأساوية. ولذا وسم السراب بالخالد لأنه مستمر في كنه الوجود لا مناص عنه .

و الحقيقة أن ما ذهب إليه الشاعر في الأبيات السابقة من طعن وقدح قد أربكني بعض الشيء وجعلني في شك من الشاعر وفكره ، حتى قلت في نفسي إن عقيدة الشاعر في خطر ؛ وكأن الشاعر قد أدرك هذا الأمر مني ، فأدركني ببضعة أبيات تزيل شكى ، لتقر نفسي اتجاهه؛ يقول الشاعر[75] :

ألمَحض الوجود والموت جئنـــا أم لسرٍّ وحكمةٍ مكنونـــــــه
ليت من في السماء يرحم شكى فيريني ضياءه أو يقينـــــــه
من أنا من أكون ما كنت ما بد ءُ وجودي متى تكون النهايه
ما وراء الحياة ما غاية الدهـــ ـر وما كان قبل بدءِ الروايه
كان من أوجد الورى من تراب وله في الوجود أعظم آيـــــه
ثم ماذا صمت وعيٌّ وعجـــزٌ وظلام وحيرةٌ وعمايـــــــــه

[75] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ414 ، 415

وشكوك تعبّ أيّام عمري وتريني ضلالتي كهدايـــــــــهْ
ومقادير تستحثُّ خطانا وهي تجري بنا إلى غير غايهْ
وتمرُّ الحياة بين سؤال وجواب يزيد جهلي غوايـــــهْ

هنا يعرض الشاعر لثنائية الحياة و الموت ؛ حيث تدور تساؤلات الشاعر : هل هما مجردان من المعاني والعبر ؟ ، أم ثم أسرار وحكم وراءهما ؟ . وهنا نقطة التعديل في فكر الشرنوبي ، ومنطقة استعادة الصواب ، وبداية التفكير السليم ؛ فالشاعر هنا تجاوز فكرة الرفض المطلق للحياة والموت والتمرد عليهما بصفة عامة إلى الوقوف وراء أسبابهما والبحث عن أسرارهما . ومن ثم يلوذ الشاعر ويتوجه إلى السماء متضرعا إلى الله . تعالى . أن يرحم شكواه ويلهمه المعرفة والإجابة حول التساؤلات التي تشغل باله ، وتسيطر على وجدانه ، متمثلة في : (من أنا ؟ . من أكون ؟ . ما كنت ؟ . ما بدء وجودي ؟ . متى تكون النهاية ؟ . ما وراء الحياة ؟ . ما غاية الدهر ؟ . ما كان قبل بدء الرواية ؟) .ولا يخفي أثر الاستفهام في بناء النص الأدبي ، فهو " من أشكال التنوع في الأساليب والانتقال من الخبر إلى الإنشاء كما أنّه يدفع المخاطبين إلى التأمل، وقد يخرج الاستفهام عن الاستفهام الحقيقي إلى تحقيق أغراض بلاغية أخرى »[76] ثم يقر الشاعر بوحدانية الله الله . تعالى . وخلقه الورى من تراب ، ويرى أن الوجود أعظم آية من آيات الله . تعالى . ، ثم يعود الشاعر إلى ما يعتري الإنسان من مغبة النقص متمثلة في (الصمت . العي . العجز . الظلام . الحيرة . الجهل . الشكوك) .وبعد ذلك يأتي الشاعر بثلاثة أبيات تكاد تكون انعكاسا لمضمون العنوان ؛ حيث يقول في البيت الأول [77]:

وشكوك تعبّ أيّام عمري وتريني ضلالتي كهدايه

فالشاعر يشتكي من تلك الشكوك التي صبغت وجدانه ، ورافقته على مدى أيام عمره وزخرت بها حياته ؛ والتي دوما تجعله يرى الضلالة هداية ؛ وهذا هو شكل من أشكال السراب، وصورة من صوره بل إسقاط للسراب الطبيعي إلى سراب وجداني ، فهذه الشكوك بمثابة المعادل الموضوعي للسراب ، ومثلما يري الإنسان السرابَ ماء فإذا جاء عنده لم يجده شيئا، كذلك الشكوك يراها صاحبها حقيقة وهداية ، فإذا اقترب منها وعرف كنها وجدها ضلالة. وكذلك الأمر في البيت الثاني ؛ حيث يقول الشاعر [78] :

ومقادير تستحثُّ خطانا وهي تجري بنا إلى غير غايه

---

[76] محمود عكاشة : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالية. القاهرة: دارالنشر للجامعات. 2005 م صـ76
[77] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ415 ، 414
[78] المرجع السابق صـ 415

فالمقادير هنا معادل موضوعي للسراب ؛ فهي تدفع صاحبها للسعي إليها و الجري وراءها فإذا وصل إليها لم يجد منها غاية ولا هدفا، وكذلك الأمر في البيت الثالث؛ حيث يقول الشاعر[79]:

وتمرُّ الحياة بين سؤال وجواب يزيد جهلي غوايه

إن انقضاء الحياة تدفع الإنسان لكثير من التساؤلات ومحاولة البحث عن الإجابات ؛ وكلما وجد إجابة لسؤال ، وظن أنها الإجابة الصحيحة لسؤاله ، اكتشف زيف الإجابة وأنها قد زادت من جهله وليست الإجابة الفعلية لتساؤله ؛ فالإجابات هاهنا هي المعادل الموضوعي للسراب .

والحقيقة أنني حاولت في تناولي للقصيدة من بدايتها أن أقف على سمات وجدان الشاعر وانطباعها على القصيدة ،والوقوف على علاقة عنوان القصيدة بمضمون النص الشعري من جهة وسمات الشاعر الذاتية من جهة أخري ، غير أن الشاعر في نفس القصيدة كان أكثر فطنة منى إلى ذاته ، وأصدق منى في وصف وجدانه ، حتى بدا لي أن عند الشاعر من الذكاء والحدس ما لم أتوقعه ؛ ولثاني مرة يدرك أنه قد أحدث لبسا ولغطا في شعره ؛ قد يذهبان بالمتلقي بعيدا ، فأبي إلا أن يعيد القارئ إلى صوابه ، ويطمئنه رويدا رويدا بعدما ذهب بنا كل مذهب من شك ورفض للحياة وتمرد عليها ؛ يقول الشاعر[80] :

أنا أشكو إذا ابتليتُ وأشـــــــدو حين يصفو الوجود في ناظريَّا
أنا أصبو إلى الصباح وأشتـــــا ق إلى الليل هادئاً عبقريـــــاّ
أنا أحيا كالناس ما دمت فيهـم فإذا ما خلوت صرت نبيـــــاّ
صرت شيئا يحار في فهمه الكو ن ولغزاً محجّباً أبديـــــــــاّ
أستثيرُ الظنون حتى أرانـــــي ثورةً تملأُ الوجود دويـــــــاّ
وأرى العالم الملطّـــــخ بالأو حال قبراً من الحياة خليّـــــا

يبدو من الأبيات السابقة أن الشاعر في نظر نفسه أكثر بساطة من التعقيدات سالفة الذكر التي سبق وكلتها له أنا وزملائي من الباحثين ، فالشاعر يرى أنه لا يشكو إلا إذا وقع الابتلاء عليه وإذا صفا الوجود وزالت الابتلاءات شدا مثل الطائر في أيكه ، يسعى للصباح ويشتاق لهدوء الليل ، يساير الناس ويسير على طبعهم طول ما كان معهم فإذا

[79] المرجع السابق صـ415
[80] المرجع السابق صـ 416

خلا بنفسه صار مثالا من الكمال كالأنبياء ، ثم يأتي ببيتين من الشعر لهما أصدق وصف ولطالما حمت حول معناهما وأنا في ثنايا شرح أشعاره وذلك في قوله[81] :

صرت شيئا يحار في فهمه الكو ن ولغزاً محجّباً أبديّا

أستثيرُ الظنون حتى أراني ثورةً تملأُ الوجود دويّا نعم لقد صار الشاعر من خلال آرائه التي عرضها في شعره محيرا ولغزا يصعب فهمه بل يصل الأمر إلى ما تقوم به القضايا التي طرحها في شعره من ثورة في فكر الناس تدفعهم إلى التمعن وإعادة النظر في قضايا الكون و الحياة . وبعد هذه المكاشفة و المصارحة من قبل الشاعر يعود ثانية في ختام قصيدته إلى نقطة البداية ، حيث الغموض و التمرد على الحياة ؛ يقول الشاعر[82] :

أنا ماض إلى السراب فحيّـــــــوا يا ضحايا الظما شهيد الفلاة
أنا ماضٍ فلا تخفّوا إلى قبـــــــر ي ولا تزعجوا سكون رفاتـي
حطّموا مزهري وذرّوا بقايـــــــا هـ وصلّوا في مأتم الذكريـــات
واسحقوا هيكلي وألقوا إلى الريـ ـح حطامي وبعثروا أغنياتي
واذكروا إن ذكرتموني ضياعي وشرودي وحيرتي وشتاتـــي
ودعوني أنم فقد آن للعـــــــا لم أن يستريح من صرخاتـي

يكرر الشاعر قوله (أنا ماض) في بداية البيتين الشعريين ، مما يؤكد سيطرة فكرة الرحيل على الشاعر ، فلازالت فكرة الموت تحيط بالشاعر وتسيطر عليه، وتسد عليه مداخله ، وتقضي على أحلامه ، وهنا ينادي على المكلومين الذين لم تتحقق أمانيهم ومضي بهم العمر دون هدف (يا ضحايا الظما) طالبا منهم أن يلقوا التحية على شهيد الحياة ؛ واصفا الحياة بالصحراء لما فيها من سراب ومهالك وصعاب تحيط به من كل جانب ، وتعصف بأمانيه وتحطم أهدافه .

ثم يكرر الأمر في بداية الأبيات الأربع الأخيرة ؛ وهنا يخرج الأمر عن غرضه الرئيس إلى غرض آخر هو التمني ؛ فالشاعر يتمنى من الناس أن يحطموا رفاته ويسحقوا هيكله ويلقوا ما بقي منه إلى الريح وأن يذكروا ضياعه وشروده وحيرته وشتاته ، والعامل النفسي للشاعر يقف وراء هذا التكرار إذ " يعدّ الباعث النفسي من أهم العوامل المسببة للتكرار ويمتاز عن غيره بأنّه الاكثر ظهوراً بينها لما يمثله من إعادة لما وقع في القلب

[81] المرجع السابق صـ416

[82] صالح الشرنوبي : الديوان مرجع سابق صـ417

واستقرّ في النفس فانشغلت به عمن سواه " [83]وفي البيت الأخير يدرك الشاعر أن صرخاته قد أزعجت العالم فيتمنى منهم أن يتركوه يموت بسلام .

إذن انتهت القصيدة بهذه المقطوعة التي يقرر الشاعر فيها رحيله للسراب بطريقة توحي بالرضا والاستسلام بعد كل هذا التمرد والصراخ الذي ملأ القصيدة منذ البداية ، وبالرغم من الرضا و الاستسلام للمضي إلى السراب فالشاعر لا يريد أن يكون مروره للسراب مرور باقي الناس ، فلابد أن يصنع ضجة أخرى حتى في استسلامه ورحيله ؛ فالشاعر يتمرد على بقاء رفاته بعد موته ، ويطالب الناس بسحقها ونثرها للرياح متمنيا أن يرتاح العالم من صرخاته .

4 . ثنائية المرأة والسراب عند كل من (حفني ناصف . فاروق جويدة) :

رأينا فيما سبق كيف كان السراب انعكاسا لوجدان محطم ، وروح مبعثرة ، ونفس ممزقة، مما دفع الشاعر في بعض الأوقات إلى التمرد العقلاني ، و الرفض المنطقي الممنهج كما هو الحال عند إبراهيم ناجي وبدر شاكر السياب ، وأحيانا تصل الثورة قمتها و التمرد عنفوانه ؛ فيكون الرفض أهوجَ ، والتمرد عاتيا ، كما هو الحال عند صالح الشرنوبي . وقد يذهب الشاعر إلى التغني بالسراب ووصفه ووصف إحساسه دون أن يظهر هذا التمرد العنيف ، فقط يمر الشاعر بتجربة فيصوغها في قالب شعري فني ، معبرا عن تجربته دون أن تترك هذه التجربة تغييرا عاصفا في فكره، ودون أن تطبع وجدانه باللون الأسود ، فهذا هو الشاعر حفني ناصف يكتب قصيدته (ما بالُ أصدقَ وعدها كسرابِ) التي تعطي انطباعا للمتلقي بالفرحة و التمايل على أنغام قصيدته حتى بما تضمنته القصيدة من ألفاظ الهجران وعذابه ؛ يقول الشاعر [84]:

ما بالُ أصدقَ وعدها كســـــرابِ يُذكى الأُوامَ ولا يفي بشـــــرابِ
حلفت تواصلني وما صدقت كمـــا زعموا ولا قسَمٌ لذاتِ تخضـــــابِ
ما لي أعلل صادقَ الوعدِ الوفيّ بغادرٍ من وعدها كـــــــــــذابِ
أهوى الصبابة والجوى وأرى الكآ بة في الهوى سبباً من الأسبـــابِ
فإلى متى هجر الأحبةِ دأبـــهـــا وتمسُّكي بعُرى المحبةِ دابـــــــي
وفؤادها طوع الوشاةِ ومسمعـي أعصى العصاة عن الملامة آبي

[83] فهد ناصر عاشور : التكرار في شعر محمود درويش. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2004 صـ 34
[84] حفني ناصف : الديوان https://www.aldiwan.net/poem49142.html

يفتتح الشاعر قصيدته متسائلا ومتعجبا من كذب وعودها ، ويشبه الشاعر أصدق وعد عند محبوبته بالسراب الذي يزيد من العطش ولا يسد رمق صاحبه من العطش ، ولا يخفى دور هذا التصريع الذي جاء في مطلع قصيدته في إذكاء الموسيقي وإحداث نوع من الطرب و التصريع " أن تكون قافية الشطر الثاني من البيت هي نفس قافية الشطر الأول"[85] . كما نلاحظ كثرة استخدام حروف المد كالألف في قوله (ما . وعدها . كسراب . الأوام . شراب) و الياء في قوله (يذكي . يفي) ولعل هذا يتناسب مع نغمة الحزن التي يحاول الشاعر طبعها علي الأبيات، فضلا عما يحققه هذا المد من موسيقي في البيت الشعري .

وفي البيت الثاني يدور الشاعر حول نفس معنى البيت الأول ؛ من أن محبوبته تقسم له على جديتها في وصله ولكنها كالعادة لا تصدق ويصدق فيها من نصحه بالحذر من كذبها؛ وهكذا تسير باقي أبيات القصيدة حول فكرة واحدة أن وعود محبوبته بالوصال كالسراب الذي لا يتحقق. ثم يبدأ الشاعر بعد ذلك بوصف تباريح الهوي التي استبدت به ؛ يقول الشاعر [86]:

لم لا أرى العشاقَ مثلي في الهوى صرعى وليس الصبُ كالمتصابي
لم أدْرِ أن العشقَ من أسمائـــــهِ قبل الغرامَ مفكك الأعصـــــــابِ
يا قلبُ ويحكَ إن ليثاً طرفُهـــــــا أو ما تراهُ ساكناً في غـــــابِ
كادت تحرقني صبابتيَ التـــــــي شبّت فلولا طرفيَ المسكـــــابِ
تصمي سيوفُ لحاظها مغمـــودةً أرأيتُ سيفاً صاب جوفَ قـــرابِ
قتلت متيمَها وما اكترثت بـــــهِ من غير ما ذنبٍ كقِتلةِ هابـــي
ما استرجعت سألت ولا ورداً سقت أبداً ولا عضّت على العنـــــابِ
أخت الهلالِ أما بقلبكَ رحمـــــة لمتيم بهوى هواكِ مصـــــــابِ

و بالرغم من محاولة الشاعر استخدام مفردات تدل على الصبابة و الشوق مثل (صرعي ، الصب ، المتصابي ، تحرقني صبابتي ، طرفي المسكاب ، قتلت متيمها) وغير ذلك من المفردات التي تكال عند الحديث عن الصبابة و الجوي ؛ فالشاعر لم يستطع فرض نغمة حزينة على الأبيات الشعرية لتجعلك تتعاطف معه وتشاركه أحزانه . إن

[85] إدريس الناقوري : المصطلح النقدى فى نقد الشعر ، دراسة لغوية ، وتاريخية ونقدية، ليبيا ط2، 1984 صـ 263
[86] حفني ناصف : الديوان https://www.aldiwan.net/poem49142.html

وجدت . ولا أظن الشاعر يريد هذا الإحساس بقدر ما يريد التغني بحالة شعورية ، و التلاعب بالألفاظ ، واستحضار تراكيب بديعية، تشبع لديه الإحساس الجمالي باللغة العربية ، ولعل كثرة شغفه باللغة العربية بصفة عامة، وقواعد النحو و البلاغة بصفة خاصة من أهم الأسباب التي وسمت شعره بهذا المنحي .فالأبيات السابقة تزخر بالتراكيب البديعة ؛ فمن ذلك قوله : (ليثا طرفها) حيث يشبه طرف محبوبته بالأسد ولا يكتفي بالتشبيه حتى يزيد عليه حسن التعليل في قوله : (أو ما تراهُ ساكناً في غابِ) فالشاعر بعد أن شبها طرف عينها بالأسد أتي بتعليل ليقنعك بالأمر وهو أنه (ساكنا في غاب) وفوق هذا كلمة (ساكنا) قد تكون بمعني أنه يعيش في الغابة ، وقد تكون بمعنى السكون الذي يسبق الهجوم الأسد على فريسته . وهكذا تحفل الأبيات بمثل هذا التعقيد البلاغي واللغوي و الذي إن دل على شيء فيدل على حب الشاعر اللغة ومحاولة إظهار مقدرته اللغوية والبلاغية عن توصيل التجربة الشعرية نفسها بصورة صادقة . ويؤكد على صحة هذا الرأي البيت التالي ؛ الذي يقول فيه :

كادت تحرقني صبابتيَ التي شبّت فلولا طرفيَ المسكابِ

فالشاعر يستخدم استعارتين في وقت واحد ؛ وذلك في قوله (تحرقني صبابتي) فهي استعارة مكنية والاستعارة الثانية في قوله (صبابتي التي شبّت) فهي أيضا استعارة مكنية شبه الصبار بنار تشب وحذف النار وأتي بشيء من لوازما وهو (الشبّ) ، وفي نفس البيت يريد أن يقول أن الصبابة كادت تحرقه لولا نزول الدموع من عينيه التي أطفأت لهيب ناره ؛ وهكذا يسير الشاعر على هذا النهج من تعدد صور البلاغة في البيت الواحد وتعقدها ما يجعل المتلقي ينصرف عن التجربة الشعرية نفسها وصب تركيزه على فك طلاسم الصور البلاغية .

أما الشاعر فاروق جويدة في قصيدته (العَدْو خلف السراب) [87] وهي إحدى قصائد مجموعته الشعرية (طاوعني قلبي للنسيان) ، كان أكثر بلورة لمعني السراب في تجربته الشعرية من الشاعر حفني ناصف ، كما كان أقل حدة في تمرده وثورته عن الشعراء السابقين مثل ناجي والسياب و الشرنوبي ؛ يقول جويدة:

تزيد المسافات بيني وبينك
تخبو الملامح شيئا.. فشيئا
وتغدو مع البعد بعض الظلال

---

[87] فاروق جويدة : الأعمال الشعرية الكاملة مؤسسة الأهرام القاهرة 1991 صـ 375

وبعض لأتذكر.. بعض الشجن

ويغدو اللقاء بقايا من الضوء

تبدو قليلا.. وتخبو قليلا..

وتصغر في العين

تسقط في الأفق

ترحل كالعطر

تغدو خطوطا بوجه الزمن..

يفتتح الشاعر قصيدته بفعل مضارع وهو الفعل (تزيد) ، ويتكرر حضور الأفعال المضارعة في بداية كل سطر شعري باستثناء سطر واحد ، ومما لا شك فيه أن " الجملة الفعلية أقوى تماسكاً على مستوى البنية والدلالة من الجملة الاسمية ، وهي كذلك أغرز دلالة وأدلّ على الحركة ، وأكثر تفاعلا وتعلّقاً بالعالم الخارجي وتقتضي دلالتها التجدّد والحركة والاستمرار والتفاعل المباشر مع الأحداث، وهي تتّسع لمعان كثيرة "[88]. كما يوحي الفعل المضارع بالاستمرارية مما يجعل المتلقي مشاركا في التجربة الشعرية ومتعايشا معها

كما استخدم الشاعر المفردات البسيطة التي توحي بتجربته الشعرية ، و التشبيهات القريبة التي تصور الحالة الشعورية خير تصوير ؛ انظر إلى التشبيه في قوله (ترحل كالعطر) لم تتعالى صرخات الشاعر لرحيل محبوبته ، ولا اسود الأفق لبعدها ، ولم يلعن الناس و لا الحياة، فقط صور لنا الشاعر في رفق وهدوء أثرا لحظيا لرحيلها ، أثر ابتعاد العطر عنك وقد تعلقت به وانجذبت له فما زلت ترمي بأنفاسك اتجاهه بغية بقائه والتمسك به أكثر فترة ممكنة ، فضلا عن الأثر الجميل الذي تتركه المحبوبة أثناء الرحيل وبعده . ولا يحيد الشاعر عن أسلوبه في بقية القصيدة ؛ حيث يقول [89]:

تزيد المسافات بيني وبينك يخبو البريق

ويحملني الشوق ألقي بنفسي على شاطئيك

فأرجع منك.. وبعضي حريق..

وأسأل نفسي على أي درب سألقاك يوما

وقد صار وجهك في كل درب يطوف بعيني

طريق أشد الرحال إليه.. فيهرب مني

---

[88] محمود عكاشة : الربط في اللفظ والمعنى. القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.2010 صـ 108 - 109 .

[89] فاروق جويدة : الأعمال الشعرية الكاملة مرجع سابق صـ 375

طريق أعود غريبا عليه.. فيسأل عني..
طريق يداعبني من بعيد
فأجري إليه ويصرخ.. دعني..
على أي درب سألقاك يوما
وفي أي درب ستصرخ حزنا دماء البريء..
فأنت الزمان الذي قد يجيء
وأنت الزمان الذي لن يجيء
وأنت الصباح الذي ضاع في العين

لا زال الشاعر يعتمد الجملة الفعلية مصورا حركة الابتعاد التي تزيد بينه وبين محبوبته ، مستخدما الاستعارة في قوله (يحملني الشوق) مصورا الشوق بشيء مادى يحمل فوقه وحذف هذا الشيء المادي وأتى بشيء من لوازمه وهو قوله (يحملني) . ثم يبدأ الشاعر في سرد المعاني التي تتفق وعنوان القصيدة ؛ فمن ذلك قوله :

- (طريق أشد الرحال إليه.. فيهرب مني) فالشاعر يسعى وراء محبوبته وكلما ذهب في طريق يستخدمه للوصول إليها هرب منه الطريق وابتعد عنه كما لو كان يعدو وراء السراب.

- (طريق يداعبني من بعيد . فأجري إليه ويصرخ.. دعني..) فالشاعر كلما أصابه إخفاق في السعي وراء محبوبته وسيطر اليأس عليه ، تراءى له طريق يفتح باب الوصال أمامه ولا يكذب الشاعر خبرا فيجري إليه ولكن بلا فائدة حيث يرفضه الطريق ويصرخ في الشاعر مطالبا إياه بالتنحي و الابتعاد . وهنا يوظف الشاعر الاستعارة في وصف رفض الطريق له حيث يشبه الشاعر الطريق بشخص يصرخ وحذف الشخص وأتى بشيء من لوازمه وهو (يصرخ) كما تعكس هذه الاستعارة مدي اليأس الذي سيطر على حال الشاعر الذي لا يجد طريقا مفتوحة ليصل محبوبته . ولا يلبث أن يعود الشاعر ثانية في نهاية القصيدة إلى الجمل الفعلية ولكنه هذه المرة يصرح بعنوان القصيدة ؛ يقول الشاعر[90]:

تعبنا من العدو خلف السراب
وذقنا زمانا بأحزاننا
ونمضي مع العمر حلما طويلا
وتغدو المسافات هما ثقيلا

[90] فاروق جويدة : الأعمال الشعرية الكاملة مرجع سابق صـ 377

و مازلت أمضي و أمضي إليك

وإن كان عمري يبدو قليلا

يتألم الشاعر من السعي وراء السراب ، وما يذوقه من أحزان الزمان وبالرغم من ذلك يسعى الشاعر إلى حبيبه بالرغم من ثقل المسافات . ولا زال الشاعر يغرف من الجمل الفعلية التي توحي بالحركة وعدم الاستقرار و السعي الدائب ؛ مثل : (تعبنا . ذقنا . نمضي . تغدو . أمضي . أمضي إليك) ، كما تعكس هذه الأفعال دقة الشاعر في اختيار هذه المفردات التي توحي بهزيمته في سعيه للوصول إلى محبوبته ، وحزنه جراء ابتعاده عن محبوبته .

كما استخدم الشاعر مجموعة من الصور الفنية التي توحي باستسلامه كما تعكس أحزانه وأوجاعه ؛ فمن ذلك قوله:

. (تعبنا من العدو خلف السراب) فالصورة هنا تقوم على الاستعارة حيث صور السراب بشيء مادي يجري الشاعر وراءه ، وحذف هذا الشيء المادي وأتي بشيء من لوازمه وهو الجري.

. (وذقنا زمانا بأحزاننا) حيث شبه الأحزان بشيء مادي يتذوق ، ولكنه حذف هذا الشيء المادي وأتى بشيء من لوازمه وهو التذوق .

ومما سبق يتضح أن الشاعر استخدم من المفردات و الصور ما يعكس حسه وتجربته الشعورية دون تمرد صارخ ولا سطحية ، كما أن عنوان القصيدة كان مسيطرا على أجواء النص من معان ومفردات وصور فنية .

المبحث الثاني

مفردة السراب داخل القصيدة

حلت مفردة السراب كمفردة داخل قصائد كثيرة فأضافت دلالات للمعنى ،ودعمت غرض القصيدة كما عبرت عن إحساس الشاعر ووجدانه . وقد وجدت مفردة السراب في سياقات مختلفة ، ووظفها الشعراء في خدمة معانيهم وصورهم ، ومن أمثلة ذلك ما يأتي :

1. السراب و الرثاء :

ترددت مفردة السراب في شعر الرثاء ، وتم توظيفها لخدمة الغرض من جهة وملاءمة الحالة الوجدانية للشاعر من جهة أخري ؛ فأمير الشعراء أحمد شوقي [91] يفتتح قصيدته في رثاء الصحفي يعقوب صروف ؛ بقوله :

---

[91] أحمد شوقي : ديوان شوقي توثيق وتبويب وشرح وتعقيب ، د أحمد محمد الحوفي نهضة مصر 1981 صـ 373

سَماؤُكِ يا دُنيا خِداعُ سَرابِ وَأَرضُكِ عُمرانٌ وَشيكُ خَرابِ

افتتح الشاعر أحمد شوقي مرثيته بالوقوف على حقيقة عامة تلامس قلوب المتلقيين ، فمن منا لم يشعر بمرارة الفقد في قريب له ؟!، أو يتجرع غضاضة الحزن لرحيل عزيز له ؟!، وهذا دأب كثير من الشعراء أن يعمدوا إلى جذب اهتمام المتلقي بتناول قضية عامة يتعلق الجميع فيها بسبب ، قبل الولوج إلى الحديث عن حالته الخاصة . وعلى هذا النهج سار أمير الشعراء الذي" بلغت قصائده الرثائية ستين قصيدة، وهي كثيرة حقا، فاستطاع أن يضع خلالها أبياتًا فلسفية محكمة وشاملة مضيئة تبيّن حتمية الموت وحرارته وتفاهة الحياة وما يلاحقها من بؤس وسعادة"[92].وهذا ما يتضح في البيت السابق من الحديث عن وهمية الحياة وخداعها واقتراب الموت من الجميع ؛ وهذا ما يجعل مفردة السراب مناسبة للمعني الذي يقصده الشاعر .

إذن مفردة السراب تتناسب مع المعاني التي قصدها الشاعر وفوق ذلك جاءت المفردة في نهاية الشطر الأول ليحقق الشاعر منها تصريعا مع آخر مفردة في نهاية الشطر الثاني ، كما وقع بينهما جناس ناقص (سراب . خراب) . ولا يخفى أن الشاعر قد استغل ما في الكلمة من مد ليتناسب مع حالة وجدانه من صراخ و وجع وألم . وهكذا حققت مفردة السراب دورا مهما في دعم المعاني الفنية و الوجدانية بالبيت الشعري . ويبدو أن شوقي وجد في تلك المفردة ضالته المنشودة فاستخدمها في أكثر من موضع بديوانه وهو بصدد الرثاء ؛ ففي رثاء المنفلوطي يقول [93]:

اليَومَ أَبصَرتَ الحَياةَ فَقُل لَنا ماذا وَراءَ سَرابِها اللَمّاعِ

فالشاعر يستخدم مفردة السراب ليبين أن الدنيا لا شيء فيها سوى بريق يخدع صاحبه ،وفي رثاء الطيار أحمد حسنين يقول [94]:

يا جائب الصحراء ملء سرابها غرر وملء ترابها أخطار

فما دام الشاعر بصدد تأبين طيار وذكر خصال المتوفي الحميدة ، فأجمل صفة أنه يجوب الصحراء بطائرته ومادام ذكر الصحراء فأحبب بذكر أصعب ظاهرة يجتازها الطيار في الصحراء وهو السراب . وفي رثاء الملك حسين يقول الشاعر أحمد شوقي [95]:

---

[92] عبد العزيز المطيري : "الصدق الفني في رثاء الاعلام عند احمد شوقي" المجلة العربية للنشر العلمي العدد الواحد و الثلاثون سنة 2021صـ224

[93] أحمد شوقي : ديوان شوقي مرجع سابق صـ 483

[94] المرجع السابق صـ467

[95] المرجع السابق صـ528

كُلُّنا وارِدُ السَرابِ وَكُلٌّ حَمَلٌ في وَليمَةِ الذِئبِ طاعِم

فالشاعر يعزي نفسه بأن الجميع سيرد الموت ، وأن الموت مقدر للجميع وفي رثاء مكتشف مقابر من الغرب يقول أحمد شوقي [96]:

يَأسى عَلى حَرباءِ شَمسِ نَهارِهِوَنَزيلُ قيعَتِهِ وَجارُ سَرابِهِ

فشوقي وجد أن مفردة السراب مناسبة لتأبين المتوفي وأن ذلك يتناسب مع طبيعة عمله ؛ مكتشف آثار .وهكذا نجد أن مفردة السراب دارت كثيرا في قصائد الرثاء عند شوقي لمعرفته بأن هذ المفردة تناسب الحالة النفسية للقصيدة وكذلك تنسجم و معاني القصيدة.

ويأتي العقاد بصورة بديعة للسراب فيقول في رثاء محمد فريد [97]:

وكأنما الدنيا سراب سرمدلا يرتوي منه ولكن يغرق

فالشاعر يشبه الدنيا بالسراب الأبدي فلا أحد يرتوي منه ولكن الجميع يغرق فيه ، وبالرغم من حسن الصورة وإبداعها ففيها صورة حقيقية للواقع فالجميع ينشغل ببريق الدنيا ولكن لا أحد ينال منها شيئا سوى الموت. أما على الجارم فيقول في تأبين الخديوي إسماعيل فيقول بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاة الخديوي إسماعيل [98]:

وكلُّ أيادي غيرِه حُلْمُ حالمٍوكل نوالٍ من سواه سَراب

فالشاعر يصف عطاياه وأفعاله الحسنة بأنه وصلت لمرحلة جعلت محاولة أي شخص آخر للعطاء مجرد حلم ، وأي نوال مجرد سراب .

2. السراب و الغزل :

جاءت مفردة السراب في قصائد الغزل لتعبر عن معان متعددة وتحقيق دلالات مختلفة ؛ فإبراهيم ناجي في قصيدته التي مطلعها[99] :

يا شطر نفسي وغرامي الوحيد ما شئتِ يا ليلاي لا ما أريد

يستخدم مفردة السراب مرتين في شطر واحد وذلك في قوله :

يا من رأت حزني العميق البعيد داويتِ لي جرحي بجرح جديد
هتكتِ عن روحي خفي النقاب فلم يزل يا ليل هذا الحجاب
حتى مشت كفّاك فوق العذاب يا ليل إني لشقي سعيـــــد
عمري سرابٌ في بقايا ســراب وكل أيامي المواضي اغتراب

---

[96] المرجع السابق صـ 381
[97] العقاد : ديوان من دووابن 1958 صـ 211
[98] على الجارم :ديوان على الجارم ، طبعة دار الشروق ط1 1986 صـ302
[99] إبراهيم ناجي : الأعمال الشعرية الكاملة مرجع سابق صـ 436

فالشاعر يصف الألم الذي يقاسيه ، و الحزن المسيطر عليه جراء ابتعاد محبوبته عنه ، حتى يصل إلى الشعور بسيطرة السراب على حياته و الشعور بالغربة عن زمانه . ويسير على نفس النهج في قصيدته التي يقول في مقدمتها [100]:

أحبك ما حييت وأنتَ حسبي فجرب أنت قلباً بعد قلبي
و يا أسفا على صحراء عمر جفاها بعدك المطر الملبي
نهاري في لوافحها سراب وليلي من أباطيل وكذبِ

فالشاعر يبكي حياته التي تحولت إلى صحراء جفاها المطر جراء فراق محبوبته حتى أن نهاره من حرارة الصحراء صار كالسراب . . وفي قصيدة أطلال يحاول الشاعر أن يخلع تعلقه بمحبوبته قائلا [101]:

أمهل فؤادي ساعة ريثما أخلع عن قلبي سراب الضلال

وعلى هذا النحو يسير أحمد رامي ؛ حيث يقول [102]:

إني خلعتُ عليك ظلّ شبابـــي فإذا هواك مُنّي ولمع سـراب
وسفحت أسراب المدامع من دمي والدّمع والدم منحة الأحباب

فالشاعر أيضا يبكي شبابه الذي ضاع في سعيه لوصل محبوبته ؛ وبعد فوات الآوان أدرك أن هذا الهوى مجرد أمنية لا تتحقق ولمع سراب لا يصل طالبها لشيء

فالشاعر يصف تعلقه بمحبوبته بالسراب الذي لابد أن يخلعه . ولم يغفل نزار قباني توظيف مفردة السراب في غزله ؛ إذ يقول في قصيدة أمام قصرها [103]:

متي تجيئين ؟ قولي
لموعدٍ مستحيل
الوقوع .. فوق الحصول
وأنت . لا شيء إلا
وأنت خيط سرابٍ
يموت قبل الوصول
في جبهة الإزميل ..

---

[100] المرجع السابق صـ 490
[101] المرجع السابق صـ 70
[102] أحمد رامي : ديوان رامي طبعة دار الشروق الأولي 2000 صـ 120
[103] نزار قباني : الأعمال الشعرية الكاملة ط15 بيروت جـ 1 صـ13

فالشاعر يعلم أن محبوبته لن تأتي إليه ولن يلتقي بها فما هي إلا سراب لا يتحقق ، أما محمود درويش فكان له رأي آخر مختلف عن باقي الشعراء عند حديثه عن السراب ؛ فالسراب عنده هو الأمل الذي يعيش به ؛ يقول محمود درويش [104]:

بغيابها، كَوَّنْتُ صُورَتَها: مِنَ الأَرضيّ
يبتدئ السماويُّ الخفيُّ. أَنا هُنا أَزِنُ
المدى بمعلَّقات الجاهليِّين... الغياب هُوَ
الدليلُ هُوَ الدليلُ. لكُلِّ قافِيَةٍ أُقمتْ
خيمةٌ. ولكُلِّ شيء في مهبِّ الريح
قافيةٌ. يُعَلِّمني الغيابُ دروسه: ((لولا
السرابُ لَماَ صَمَدْتَ...)) وفي الفراغ

يرى الشاعر أن غياب محبوبته ، أو" تغييبه لمحبوبته كون صورتها فكانت صورة سماوية أي مقدسة "[105] ونحن لسنا بصدد التحدث عن أسطورة التكوين التي يلمح لها درويش وإنما نسلك الضوء على هذا التصور الجديد للسراب فبرغم أن جميع الشعراء يلعنون السراب فالشاعر يرى أن للسراب وظيفة مهمة فبدونه لما استطاع الصمود أمام غياب محبوبته ، ويؤكد على هذا التصور الجديد للسراب في نهاية قصيدته إذ يقول[106] :

تقول صديقتي الأولى. **((دَعِي**
الشُبَّاكَ مفتوحاً ليدخل طائرُ الدوريّ
حُلْمَكِ))... ثم أَصحو، لا مدينةَ في
المدينةِ. لا ((هُنا)) إلاّ ((هناك)). و لا
هناك سوى هنا. لولا السرابُ
لَما مَشيْتُ إلى تلالٍ سَبْعَةٍ....
لولا السراب!

يختتم الشاعر قصيدته بالتأكيد على أهمية السراب فهو الدافع أمامه للسعي و البحث و البقاء صامدا أمام الغياب . أما صالح الشرنوبي فنجده يجعل من السراب رجلا يلقي رداء من صنعه على محبوبته حتى صارت هي و السراب صنوان ؛ يقول الشاعر [107]:

---

[104] محمود درويش : ديوان لا تعتذر عما فعلت ، رياض الريس للكتب و النشر ط2004 صـ 49
[105] تهاني شاكر : تجليات أسطورة التكوين في ديواني (لا تعتذر عما فعلت ، و كزهر اللوز أو أبعد) لمحمود درويش مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 4 ع 2 2007 صـ468
[106] محمود درويش : ديوان لا تعتذر عما فعلت مرجع سابق صـ 50
[107] صالح الشرنوبي : ديوان صالح الشرنوبي ، مرجع سابق صـ 269

ألقى السرابُ عليك أرديـةً من نسجهِ فخدَعتِ صرعاكِ

تتعطّين فكلّهـــم فـــرحٌ وتباعدين فكلّهم شـــــاك

لولاك جفاؤك قلت من شغفي لم يبـــــدِع الخلّاق إلّاك

فالسراب هاهنا يتشارك ومحبوبته في الطبع والخصال ؛ وما دام الشاعر يشكو من خداع محبوبته وبعدها فأحبب بمفردة السراب التي توائم هذه المعاني .إذن استطاع الشعراء توظيف مفردة السرب وألقوا عليها دلالات ومعاني مختلفة وفقا للسياق وحسب وجدان الشاعر .

3. ثلاثية السراب و الذات و خداع الحياة :

شكل كل من السراب و البحث عن الذات و خداع الحياة ثلاثية لدي كثير من الشعراء وقد اتخذت أبعاد متباينة ؛ودلالات مختلفة ؛ فمن ذلك قول نازك الملائكة في ترجمة لقصيدة شاعر إنجليزي [108] :

أو ليست هذه الحياة ســـراب ؟ أوليس الفناء عقبى سناها

أو تنجي الألقاب أو مِنح المجـد إذا ما الحمام أحنى الجباها؟

يا لوهم الأحياء ،كم من حضـــارا ت أطاف البلى بها فمحاها

كل ما في الحياة ينهي إلى القبر فما مجدها؟ وما جدواهـــا؟

تبدأ هذه القطعة الشعرية بالسؤال الذي يحيد عن معناه الرئيس ليفيد معنى التقرير ؛ فالشاعرة تقرر أن هذه الحياة ليست إلا سرابا ، فالتساؤل هنا لمجرد جذب الانتباه ،ودفع المتلقي إلى التفكير في قضية الحياة . إذن الشاعرة تقرر حقيقة مفادها أن الحياة سراب ، وبعد هذا التقرير تبدأ الشاعرة في سرد مبرراتها للتأكيد على فكرة أن الحياة سراب ؛ وهو أن الموت هو النهاية الحتمية لكل أمر ، فلا ألقاب تمنع الموت عن صاحبها ولا أمجاد ، كما تسوق الشاعرة دليلا آخر : أن كل الحضارات التي تعب الإنسان في بنائها يأتي الموت عليها وتنمحي .وهذا الفكر هو سر معاناتها وفقد إحساسها بقيمة الحياة بصفة عامة . ولعل هذا السراب هو الحاجز الذي حاولت الشاعرة تجاوزه في قصيدتها (أنا) ؛ حيث تقول [109] :

والذاتُ تسألُ من أنا

أنا مثلها حيرَى أحدّقُ في ظلام

---

[108] نازك الملائكة : ديوان نازك الملائكة دار العودة بيروت ج1 1997 صـ673

[109] نازك الملائكة : الأعمال الشعرية ج 1الكاملة المجلس الأعلى للثقافة 2002 صـ 482

لا شيءَ يمنحُني السلامْ

أبقى أسائلُ والجوابْ

سيظَل يحجُبُه سراب

وأظلّ أحسبُهُ دنا

فإذا وصلتُ إليه ذابْ

وخبا وغابْ

فلا يخفي حيرة الشاعرة في البحث عن ذاتها ومعرفة كنهها ، ولكن بعد مجموعة تساؤلات من الليل والرياح وأخيرا الذات ومع ذلك لم تصل لشيء سوي السراب ، والشاعرة في كل هذا تشعر بالحيرة والمعاناة فلا شيء يمنحها السلام ولا تجد الراحة في الإجابة على تساؤلاتها . ولعل أحمد رامي في قصيدته (سر الذات) كان أيضا يبحث عن ذاته التي عصفت بها الحياة وأطاحت بأمانيها إذ يقول في قصيدة سر الحياة [110]:

من للضّلول الذي ضاعت أمانيه بمن يضيء سبيل العيش يهديه

من عيشة غر هذا الناس ظاهرُهاكما يغر سراب البيد رائيه

فالشاعر يبحث عن سند لنفسه وقد ضاعت أمانيه وضلت مساعيه لمعرفة ذاته و التي كانت نتاجا لخداع الحياة للناس ؛ فظاهر الحياة يخدع الناس كما يخدع السراب في الصحراء رائيه. وهذا أبو القاسم الشابي قد سئم من الحياة ومعاناتها ؛ إذ يقول في قصيدة السآمة[111]:

سَئِمْتُ الحياة وما في الحياة وما إن تجاوزت فجر الشباب

فأَيْنَ الأَماني وأَلْحانُهـــــا وأَينَ الكؤوسُ وأَينَ الشَّرابْ

لقدْ سَحَقَتْها أكفُّ الظَّلامِ وقدْ رَشَفَتْها شِفاهُ السَّرابْ

فالشاعر يبكي الأماني التي لم تتحقق مستخدما الاستعارة في توضيح صورته وبيان حالته الوجدانية قائلا : إن الأماني التي طالما منى النفس بها قد سحقتها أكف الظلام مشبها بذلك الظلام بإنسان له كف يسحق الأحلام وفي الوقت ذاته شبه الأحلام بشيء مادي يسحق ؛ ولعل تلك الصورة المزدوجة تعكس شدة القتامة في نفسه ، وقسوة المعاناة التي تعصف به ، ثم يزيد تأكيد حسرته على ضياع الأماني بهذه الصورة البديعة (وقدْ رَشَفَتْها

[110] أحمد رامي : الديوان مرجع سابق صـ 44

[111] أبو قاسم الشابي :ديوان أبي قاسم الشابي ورسائله قدم له وشرحه مجيد طراد ، دار الكتاب العربي بيروت ط2 1994صـ 47

شِفاهُ السَّرابْ) حيث شبه السراب بإنسان يشرب وحذف الإنسان وأتي بشيء من لوازمه (رشفتها) . وتزداد قسوة الحياة عنده في قصيدته التي يقول فيها [112] :

أدركت فجر الحياة أعمي وكنتَ لا تعرف الظلام

.....

يا صاحِ إنَّ الحَيَاة قفـــرٌ مروّعٌ ماؤهُ سَـــــــرَابْ

لا يجتني الطَّرْفُ منه إلاَّ عَواطفَ الشَّوْكِ والتُّـــرابْ

وأَسعدُ النَّاس فيه أَعمى لا يُبْصِرُ الهول والمُصَابْ

لا يخفى على المتلقي تلك البداية السوداوية التي تعكس حالة الوجع التي تصبغ وجدان الشاعر ، فالشاعر يؤكد فقر الحياة إلى مقومات الحياة ، فضلا عن كونها تروّع أصحابها فلا يشعر الإنسان فيها بالأمان حتي ما يظن الإنسان فيه خيرا يصبح سرابا ، ولا يجنى الإنسان من الحياة إلا الشوك و التراب ؛ في إشارة لمصاعب الحياة وأوجاعها ، حتى أنه يري الإنسان السعيد هو الشخص الذي لا يبصر المصاب والأهوال . ولعل هذا ما دفع العقاد إلى الهروب للبحر بعيدا عن دار الخراب ؛ وذلك في قوله[113] :

في ساحل البحر لنا غربة عن عالم الرجس ودار الخراب

لا تلمسوا البر بأقدامكم هذا هو الماء وذاك السراب

فالشاعر يرى في البحر ملاذا آمنا في البعد على الدنيا التي هي في نظره رجس ودار خراب، بل امتد الأمر به ليصف أن البر مغرق ويتوه صاحبه من السراب الذي يكتنفه ويحيط به .وما زال الشعراء يجون في مفردة السراب دلالة على خداع الحياة ؛يقول فاروق جويده [114]:

ورأيت أحلام السنين كأنها

وهم جحود.. أو سراب

وعرفت أن العمر حلم زائف

فغدا يصير.. إلى التراب

زمن حزين يا أبي زمن الذئاب

---

[112] أبو قاسم الشابي : الديوان مرجع سابق صـ 149

[113] العقاد : ديوان العقاد ، مطبعة المقتطف مصر 1928 صـ 223

[114] فاروق جويدة : صـ 84 ، 85

فالشاعر قد أدرك حقيقة الحياة يقول (رأيت) أي أن حكمه صادر على رؤية فعلية ، وتجربة واقعية ، وخبرة عملية ، فالحياة مجرد وهم أو سراب لأن العمر مجرد حلم مصيره للتراب ، ويعود الشاعر في موقع آخر ليؤكد على المعنى نفسه فيقول[115]:

يا رفيقَ العمر

ضاعَ العمرُ .. وانتحرَ الشباب

آهِ من أيّامنا الحيرى

توارتْ .. في التراب

آهِ من آمالِنا الحمقى

تلاشتْ كالسراب

فالشاعر يبكي عمره ، ويتحسر على شبابه ، ويرثي أيامه الماضية التي توارت واختفت ، ويتوجع من آماله التي تلاشت كالسراب . وبالرغم من قصر الجمل المستخدمة ،فقد استخدم الشاعر مجموعة من الاستعارات و التشبيهات في دعم صوره ومعانيه ؛فبالرغم من صغر المقطوعة الشعرية فقد زخرت بعدد كبير من الصور الفنية ؛ فاستخدم الاستعارة المكنية في قوله (ضاع العمر) حيث شبه العمر بشيء مادى يضيع وحذف هذا الشيء المادي وأتى بشيء من لوازمه وهو الضياع . وكذلك استخدم الاستعارة المكنية في قوله (وانتحر الشباب) حيث شبه الشباب بإنسان ينتحر وحذف الإنسان وأتى بشيء من لوازمه وهو الانتحار. وكذلك استخدم الاستعارة في قوله (أيامنا الحيرى) وقوله (توارت في التراب) إشارة إلى الأيام ، وكذلك قوله (آمالنا الحمقي) وأخيرا يستخدم التشبيه في قوله (تلاشت كالسراب) . وهكذا جاءت مفردة السراب في ثنايا النص الشعري لتعبر عن وجدان الشاعر وتلائم المعاني التي قصدها ؛ وكان وجودها فعالا في خدمة النص الأدبي ، ودعم الصورة الشعرية .

خاتمــة

مما سبق يتضح لنا أن كثيرا من الشعراء قد وجدوا في مفردة السراب ضالتهم المنشودة ، وغايتهم المقصودة ، فاجتهدوا في توظيفها في قصائدهم بصور شتي ؛ أهمها :

ـ وظفها بعض الشعراء عنوانا لبعض قصائدهم ، فكانت سببا من أسباب جذب انتباه المتلقي للعمل الفني .

---

[115] المرجع السابق صـ 42

ـ استطاع الشعراء المواءمة بين مفردة السراب بصفتها عنوانا للقصيدة وبين مضمون القصيدة ومعانيها .

. كانت مفردة السراب تعبيرا صارخا عن أوجاع الشعراء وآلامهم .

. عبرت مفردة السراب عن الضيق بالحياة واليأس منها

. عبرت المفردة عن استسلام الشعراء للموت .

. عبر الشعراء من خلالها على خداع الحياة .

ـ عبر الشعراء من خلالها عن مكنون ذواتهم باعتبار السراب نتيجة حتمية للبحث عن الذات وكنهها .

ـ استخدمها بعض الشعراء بصورة إيجابية فكان السراب سببا من أسباب السعي و البقاء على الحياة .

. استخدمها بعض الشعراء وهم بصدد الحديث عن المرأة سواء في قربها أو بعدها .

. استخدمها عدد من الشعراء في غرضي الرثاء و الغزل .

. وظفها بعض الشعراء في صور فنية بديعة ووصفوها بأوصاف جديدة ومبتكرة

ـ لم يقتصر الشعراء على استخدام مفردة السراب عنوانا للقصائد فحسب بل استخدموها أيضا في ثنايا أعمالهم الفنية .

وبعد فإنني أوصي بأن ظاهرة السراب في الأدب الحديث و المعاصر لا تزال تحتاج إلى دراسة أكبر وخاصة في مجال الرواية ابتداء برواية السراب لنجيب محفوظ وانتهاء بالأدب المعاصر .

الفهرس

أولا القرآن الكريم

ثانيا

ثبت المصادر و المراجع

1.إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي ، دار العودة بيروت 1980

2.ابن منظور – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري :لسان العرب دار صادر سنة النشر: 2003م ج4

3.أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان تحقيق عبد الله ابن عبد المحسن التركي مؤسسة الرسالة بيروت

4.أبو قاسم الشابي :ديوان أبي قاسم الشابي ورسائله قدم له وشرحه مجيد طراد ، دار الكتاب العربي بيروت ط2 1994

5.إحسان عباس: بدر شاكر السياب دراسه في حياته وشعره ،مكتبة بغداد بيروت ط2 1972

6.أحمد حميد كريم : الحزن والتشاؤم في شعر إبراهيم ناجي ، مجلة كلية العلوم الإسلامية بغداد العدد 41 سنة 2015

7.أحمد رامي : ديوان رامي طبعة دار الشروق الأولي 2000

8.أحمد شوقي : ديوان شوقي توثيق وتبويب وشرح وتعقيب ، د أحمد محمد الحوفي نهضة مصر 1981

9.إدريس الناقورى : المصطلح النقدى فى نقد الشعر ، دراسة لغوية ، وتاريخية ونقدية، ليبيا ط2، 1984

10.إنعام جاسب عبود : بنية الاستهلال في شعر الشاعر بدر شاكر الدياب (دراسة فنية) مجلة كلية الإمام كاظم م7 ع 4ديسمبر 2023

11.إيهاب النجـــدي : العنوان وخطاب النص الشعري نماذج من شعر السعيد عبد الكريم مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد 82 العدد 4 أبريل 2022

12.بدر شاكر السياب : الأعمال الشعرية الكاملة تحقيق على محمود خضير تقديم أدونيس . المجلد الأول ط1 لبنان 2020

13.بسام موسى قطوس : سيمياء العنوان ، عمان ط1 2001

14.تهاني شاكر : تجليات أسطورة التكوين في ديواني (لا تعتذر عما فعلت ، و كزهر اللوز أو أبعد) لمحمود درويش مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 4 ع 2 2007

15.جمال فودة : بنية النفي ودورها في إنتاج الدلالة.. قراءة في الشعر العربي المعاصر ، مقال اغسطس 2020

16.حامد الرواشدة : صورة المرأة في شعر إبراهيم ناجي : قراءة في قصيدة " الأطلال " أنموذجًا ، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 34 ، ملحق 2، 2016

17.حفني ناصف : الديوان https://www.aldiwan.net/poem49142.html

18.خالد البلاح : سيكولوجية الإبداع الشعري ؛ صالح الشرنوبي نموذجا بدون طبعة بدون تاريخ

19.خيرية عجرش : إبراهيم ناجي وتأثره بغزل الشريف الرضي : العراق مجلة أهل البيت ع 14

20.د شرين خضر : ثنائية الحب و الموت بين ايديث سيتويل وبدر شاكر السياب ؛ مجلة بحوث كلية الآداب جامعة الطائف

21.دلشاد عبد الواحد محمود و د. عصام محمد سليمان : دلالة العنوان في نثر مصطفى صادق الرافعي (العناوين الدينيّة والوجدانيّة أنموذجا) مجلة جامعة دهوك، العراق المجلد: 26 ، العدد: 1 عام 2023 ،

22.رباح عبدالله علي : مظاهر القهر الإنساني في الشعر الجاهلي رسالة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها ، إشراف اد عدنان أحمد جامعة تشرين

23.سوسن رجب حسن : المكان وتشكيلاته في شعر السياب دراسة نقدية تطبيقية ، مجلة كلية الآداب بورسعيد ع 7 2017

24.شعبان ذكي : الإبداع الشعري عند صالح الشرنوبي بين تنوع التقليد وعبقرية التجديد ، المجلة العلمية كلية اللغة العربية بأسيوط ، ع31 ج 3 سنة 2012

25.شوقي ضيف : كتاب الأدب العربي المعاصر في مصر دار المعارف القاهرة ط 10 1992

26.صالح الشرنوبي : الديوان ؛ جمعه وحققه د / عبد الحي دياب ، راجعه د/أحمد كمال ذكي ، دار الكاتب العربي القاهرة

27.صلاح فضل : نبرات الخطاب الشعري / الطبعة الأولى / دار قباء للطباعة والنشر / القاهرة / 1998 م /

28.عابد إيمان ، بن موسى فاطيمة الزهرة : صورة المرأة في شعر بدر شاكر السياب رسالة ماجستير إشراف الأستاذة: بن ضياف كريمة الزهرة جامعة الدكتور الطاهر ملاوي سعيدة الجزائر

29.عبد العزيز المطيري : "الصدق الفني في رثاء الاعلام عند احمد شوقي" المجلة العربية للنشر العلمي العدد الواحد و الثلاثون سنة 2021

30.العقاد : ديوان من دووين 1958 . ديوان العقاد ، مطبعة المقتطف مصر 1928

31.على الجارم :ديوان على الجارم ، طبعة دار الشروق ط1 1986

32.على محمد السيد حنورة : تجليات الذات الشاعرة في شعر صالح الشرنوبي دراسة وصفية تحليلية ، مجلة كلية اللغة العربية إيتاي البارود الإصدار الثالث ، العدد السادس و الثلاثون ، أغسطس 2023

33.فاروق جويدة : الأعمال الشعرية الكاملة مؤسسة الأهرام القاهرة 1991

34.فهد ناصر عاشور : التكرار في شعر محمود درويش. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 2004

35.كيلاس محمد عزيز : التجربة الوجدانية في شعر السياب المعاناة والغربة أنموذجا مجلة الجامعة العراقية ج 2 ع 56

36.المتنبي : ديوان المتنبي

37.محمد الصادق عفيفي : النقد التطبيقي و الموازنات، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة،1972،

38.محمد فكري الجزار : العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

39.محمود درويش :

40.محمود عكاشة : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالية. القاهرة: دارالنشر للجامعات. 2005 م

41.محمود عكاشة : الربط في اللفظ والمعنى. القاهرة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.2010

42.منيف موسي : نظرية الشعر عند الشعراء النقاد العرب في الأدب العربي الحديث من خليل مطران إلى بدر شاكر السياب ، دار الفكر اللبناني بيروت1984

43.نازك الملائكة : الأعمال الشعرية الكاملة ج 1 المجلس الأعلى للثقافة 2002

44.نازك الملائكة : ديوان نازك الملائكة دار العودة بيروت ج1 1997

45.نزار قباني : الأعمال الشعرية الكاملة ط15 بيروت

46.وصال حبَّال : التَّمرد في شعر إبراهيم ناجي مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية سوريا العدد 37

47.يوسف محمد عزاز يوسف : المفارقة في شعر صالح الشرنوبي ؛ مجلة كلية اللغة العربية إيتاي البارود المجلد الخامس العدد الثاني و الثلاثون